

الخالص

بحث في تاريخ الخير والشر وتمييز الانسان
بينما من مطلع التاريخ إلى اليوم

تأليف
عنايس بن محمود العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر
القاهرة - القاهرة

إدريس

بحث في تاريخ الخير والشر وتمييز الإنسان
بينهما من مطلع التاريخ إلى اليوم

تأليف
عبدالله بن محمد بن عبد الله

دار النهضة مصر للطبع والنشر

القاهرة - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة خير

يوم عرف الإنسان الشيطان كانت فاتحة خير . .

وهي كلمة رائعة معلقة ، تروع السامع وتستحق في بعض الأذواق
أن يقال ولو تسامح القائلون والسامعون في بعض الحقيقة طالبا لبلاغة المجاز .

ولكنها في الواقع هي الحقيقة في بساطتها الصادقة التي لا مجاز في لفظها .
ولا في معناها ، ولا تسامح في مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هي من
قبيل الحقائق الرياضية التي تثبت بكل برهان وتقوم الشواهد عليها في كل
مكان .

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين
الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته
وخطايا مقاصده ونياته . .

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ، فلما
ميز الإنسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع إدراك الصباح استطاع أن
يعارضه بالليل ، وبالمساء .

كانت الدنيا أهلا لكل عمل يصدر منها ، ولم يكن بين أعمالها الحسان
وأعمالها القباح من فارق إلا أن هذا يسر وهذا يسوء ، وإلا أن هذا يؤمن
وهذا يخاف . أما أن هذا جائز وهذا غير جائز في ميزان الأخلاق فلم يكن
له مدلول في الكلام ، ولم يكن له — من باب أولى — مدلول في اللحن
والوجدان .

وكانت القدرة هي كل شيء .

فلما عرف الإنسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التي تجمل
بالرب المعبود والقدرة التي لا تنسب إليه ولكنها تنسب إلى ضده ونقيضه .
وهو الشيطان .

وكانت فاتحة خير لا شك فيه .

كانت فاتحة خير بغير مجازي وبغير تسامح في التعبير .

وكانت للإنسان عين يعرف بها الظلام ، لأنها عرفت النور وخرجت من
غياية الظلمات التي كانت مطيقة عليه .

فتاريخ الإنسان في أخلاقه الحية لا يتفصل من تاريخ الشيطان .

وأوله هذا التمييز بين الخير والشر .

ولكنه الأول في طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه .

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة أخرى ألزم من تلك الخطوة الأولى
في تاريخ الأخلاق الحية .

وتلك هي معرفة الخير في الصميم .

فقد كان على الإنسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة .

فليس الخير مخلوقاً من الشر وكفى .

وليس الخير ابتعاداً عن الشر وكفى .

وليس الخير عجزاً عن الشر وكفى .

وليس الخير مخالفة للشر وكفى .

كلا . بل الخير شيء قائم بذاته وليس قساراً أنه امتناع عن شيء .

فنتوا .

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبح ، وهو الاختيار

المطلوب بعد التمييز بين القدرتين .

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان أنه يسقط لأنه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجن والملائكة أجمعين .

ولما فضل آدم عليهم لأنه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب بالخيرات وهو متمتع بالشروط .

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر لأنهم بمنجاة من غوايته وفضل على الجن الذين لا يختارون بين نقيضين .

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان في هذا العالم وعرفت معها فضيلة الإنسان .

فإنما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الإنسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يتمتع مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والمحرام .

ولما فضل آدم عليهم لأنه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب بفتنة ، ولولا ذلك لما كان فضل على الملائكة ولا على الجن .

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخاً للأخلاق الحية في وجدان آدم وبنيه . وتمتعن الأخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل كما تمتعن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

فمهما نتخيل من مخلوق قابل لأن يعرف بعيد جهل ولا يدرك بعد قصور فليس — غير الإنسان — مصداق لذلك المخلوق .

ليست الملائكة ولا الجن في صورتها الحية مخلوقات نامية في معرفتها ، بحالة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة إلى الرشد إلى غاية المدى المقدر لكل مخلوق .

ولكنها في صورتها تعلم ما تعلمه كأنه بمن خصائص معدنها التي وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه ، كلسخان النور وهجانه النار ، ولألاء الجوهر الصافي وجريان الماء وخفيقان الهواء .

ولا كذلك سليل التراب . أنه ليعلم حتى لتعجب كيف علم ، وأنه ليجهل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلاً لأن يأتي بالعجب في علمه وجهله فهو مشغول عن هذا وذاك .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » .

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » .

« قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .
« قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

فليست القداسة أن تكون نورا وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون تاراً وأنت نار .

وإنما القداسة والفخار أن تكون نورا وتاراً وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعلوان .

وكلما ذكرت الأخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان في ثوب الحياة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية في المطاوعة والاعتصام ، وتلك هي الأخلاق الحية كما تعيش في اللحم والدم وفي القيم والمزاي . فأما الأخلاق في صفحات الورق وفي مصطلحات الباحثين فهي كلمات وحروف وأصدا .

ولم يوجد النوع البشرى بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطوراً على صفحات ، ويجمعها أطر وحة في قاعة درس أو سفراً على الرف إلى جانب أسفار ..

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحيها ويعيش بين حقائقها ويعطيها

الأسماء التي تدله على تلك الحقائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ويواجهها برجائه وخوفه وباقباله ونفوره ، وينادى بالاسم من هذه الأسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة في القواميس ، بل يفهمها حبا وبغضا ، وغبطة وندما ، ورضوانا وسخطا ، وحركة تنبض بها العروق وسرا يختلج في الأعماق .

وهكذا ينطبع الحى على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الأمم وهي تحيا وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الأكوان التي لا تحصرها الأوراق ولا تحدها الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تجيء العقول طارئا عليها وضييفا في رحابها ، وقد مضى عليها في مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات .

الشیطان !

أى مجموعة من الأسفار تؤدي للضمير ما تؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان إلى الأعماق .

والى اليوم يكتب الباحثون ألف امذهب ومذهب ا، ويلحقون بها ألف « لوجى ولوجى » على اغرار السيكلوجى والبيولوجى والميشولوجى، وغيرها من اللواحق فى الأواخر على اختلاف الصيغ واللغات .

إلى اليوم يفرقون بين الصفات والأخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها فى الحس ولا فى الدهن ما بلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة « الهيروغليفية » التى تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة إلى آخر الزمان .

وقد سمعنا عن الصفات الإلهية ، والصفات الملكية ، والصفات الشيطانية ، والصفات الإنسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمدلولاتها الحية فما هو لا يفاهم شيئا من فوارق الأخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب .

ولمن أيشاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع فى مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوى أو الفلسفى من قبيل الأخلاق المثالية والأخلاق الاجتماعية

والأخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين ، وما أشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فانه لا يحس منها إلا أنها بطاقات معلقة على وجوهات أو شواخص لا نبض فيها ولا دم ولا حراك .

ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الإلهية فيفهم أنها أعلى الصفات ويحس أنه يرتفع بالاتجاه إليها والرخاء فيها إلى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغلق سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ولا يكون قصاراه من معرفتها أنها مادة في معجم أو عنوان على مذهب أو إشارة مرور إلى حيث يسير أو لا يسير .

ولأول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها في الوقت نفسه بالحنين إليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليها لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها .

ولأول وهلة يسمع الصفات الإنسانية فيعرف منها ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الإلهية والملكية ، ويعرف في الوقت نفسه أن الإنسان قابل للطموح إلى ما يعلو عليه والهبوط إلى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء .

ولأول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم أنه في موقف احتراس وحذر وإن لم يخل من تطلع في أحيان ومن إعجاب في أحيان أخرى ، ولا يضطر إلى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فان هذه الكلمة تقع في موقعها عنده كأنها نقلت إليه الشيء نفسه محسوسا ملموسا مدروسا ولم تنقله منه بإشارة أو عنوان .

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيمية أو الصفات السبعية ، فإنها كذلك تنقل إليه أشياء وأحياء ولا تنقل إليه حروفا وكلمات .

إن خالق الكون لم يرد باعطاء الناس حياتهم أن يعطيهم قاموسا أو

موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففي وسعهم هم أن يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا فاذا هي أكثر الأشياء اختلافا بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، وإذا هي برج بابل يمتد على كرة الأرض ولا يزال أبدا في حاجة إلى ترجمان .

ولو كانت هذه المدلولات في اللغات هي الحقائق المقصودة لما كان للمدلول الواحد ألف كلمة في كل لسان .

ولكن هذا النوع الإنساني تلقى وجوده من خالقه حياة تبحش في ضمائرهِ وفيما حوله بالحقائق الحية ، كائنا ما كانت أصداؤها في عالم الحروف والرموز والإشارات والكلمات والطلاسم أو في « الهيروغليفية الكونية » على الإجمال .

ومن شاء فليبادل إن كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليعد بالإنسان إلى أوله لينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ما أحسه وتعلمه من كلمة الشيطان أو كلمة الملك أو كلمة الخطيئة أو كلمة العصيان ، وليضع في مكانها ما يقترحه في تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة ميسرة محكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع الإنسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد .. فانه قاتله وملقيه في مقبرة من قاموسه الجليل .

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق ما بين كلماته ومصطلحاته ومدلولاته وبين هذه « الهيروغليفية » الكونية التي هي الكلام وهي متكلموه وهي المحسون به وفاهموه .

وليقف خاشعا مستعيذا « بالشيطان » من الغرور .

وليرجع في أمان هذه « المعوذة » إلى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الأخلاق الحية وتاريخ الإنسانية الخالدة .

فاذا كان لا يدرك تاريخ الأخلاق الإنسانية حقا وصدقا إلا من تاريخ الشيطان فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى .

إنه وجود أرسخ من وجود الإنسان .

ومن لم يكن في وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحياة والموت ، والحق والباطل ، والعلانية والخباء ، والظواهر والأسرار ، فكل أولئك له معناه الذى لا يدركه ولا يدريه .

وسنكتب فيما يلى تاريخ الشيطان لنستخرج منه تاريخ الأخلاق الإنسانية كما تشخصت فى ثنية الحياة ، ونركب عليها بعد ذلك ما يوافقها أو يلافيها من مصطلحات القاموس !

قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الإنسان عملاً العالم بأشياء لا تخص من الأرواح والأطيف .

وكان من هذه الأرواح والأطيف ما يخفى ولا يظهر لأحد ، ومنها ما يخفى على أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعزائم ، ومنها ما يتلبس أحياناً بالأجسام ويظهر لكل من لقيه في مأواه .

ولم يكن الإنسان يقسم هذه الأرواح إلى ذات خير وذات شر ، لأنه لم يميز بين الخير والشر إلا بعد معرفته بصورة الشيطان كما تقدم .

ولأنما كانت هذه الأرواح تنقسم عنده إلى أرواح مصادقة أو أرواح معادية ، وإلى أرواح نافعة أو أرواح ضارة ، وإلى أرواح سهلة أو أرواح عسيرة ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة أو درجة الفائدة والأذى ، وأما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة في طريق الإيمان بالأرواح .

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد .

فالشر لا يصدر منه خير بإرادته ، ولكن الضرر قد يصيب أناساً ولا يصيب آخرين ، وقد يأتي من عمل ولا يأتي من عمل غيره ، وقد يكون الضرر بهذا نافعا لذلك ، فليست هناك طبيعة تسوقه إلى الشر في جميع الأحوال ، بل هناك أحوال متعددة وأعمال متنوعة ، وشأن الأرواح في ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من أعدائها ، أو بين قوم من خاصته في القبيلة وقوم ينفر منها وينفرون منه لأسباب عارضة أو باقية لا ترجع إلى أصالة في الطباع .

وقد يصح تشبيه عالم الأرواح عنده بعالم الغاب أو عالم السباع والحيوان .

فالغاب فيها النمر والثعبان ، وفيها البلب والعصفور ، ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويستخدمه في مصالحه ويتركه في مسكنه ، وقد يكون عنده الكلب الأنيس وفي الحلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفي الحلاء الحصان الجامح الذي لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسألة أجوال وأحيان أو أحوال ورياضة واستعصاء .

وهكذا كان عالم الأرواح في الهمجية الأولى : كان عالم فائدة وضرر ، أو عالم هواة واستعصاء ، أو عالم صداقة وعداوة ، فأما عالم الخير الأصيل فلا تتمثل له صورة في بديهة الإنسان قبل انقسام الطبائع وتباين الأقيسة والموازن بين الأعمال والأخلاق .

ويدل على أصالة الإيمان بالأرواح في بديهة الإنسان أنها وجدت في كل سلالة بشرية من السلالات التي نشأت في القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض في مسائل الدنيا والدين ، أو من السلالات التي وجدت في الأمريكيتين منعزلة منذ أدهار لا تعرف لها بداءة ، فهي لم تتعلم تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها إلى مصدر معروف في العالم القديم .

ووجدت هذه العقيدة على أكثرها في الجزر الاسترالية المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الأمازون في أمريكا الجنوبية ، أو وجدت في أفريقية الجنوبية أو الشرقية التي يقال أنها مهد الجنس البشري قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك أنها تلقت أفواج المهاجرين من الجنس الققازي قبل فجر التاريخ .

والمهم في هذا الشئوع أنه أصيل في البداهة الإنسانية وأنه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم أن يفسروا كل شيء بالدنجل والخداع .

ويكاد الشبه بين الأرواح في القارات المتباعدة أن يكون أقرب من

الشبه بين الآدميين، أنفسهم في تلك القارات ، فاللكائن الروحي في الجزر الاسترالية أشبه باللكائن الروحي في أمريكا الجنوبية من الأمريكيين الأصلاء والاستراليين الأصلاء ، وليس بين روح وزوخ في الأقطار المتناحية ذلك الاختلاف الذي يعترى الألوان والأشكال من فعل الجو والتربة والماء والهواء ، فإنك قد تنقل الاسترالي من الجزر إلى أمريكا الجنوبية فيشعر فيها بالغربة ويريبه من قومها ما يريبه من الغرباء ، ولكنك إذا نقلت روحا من هناك إلى هنا أو من هنا إلى هناك لم تجد على غربة في عالم الأرواح ولم تكن بينه وبين العالم الذي انتقل إليه فجوة من الجنس واللون واللغة أبعد من الفجوة التي بينه وبين سائر الأرواح في وطنه الأصيل ، وانها لظاهرة جديرة بالتنبيه لها والتوقف عندها في علم المقارنة بين الأديان ، لأنها قد تفضي بنا الى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين الأجناس والأقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحده لأن محاورات الخيال وحده بعيدة الفوارق بين أساطير الأمم في الإقليم الواحد فضلا عن شتى الأقاليم .

وقد كتب الرحالون والباحثون عن القبائل الفطرية التي وجدوها في القارات الخمس خلال رحلاتهم إليها منذ أوائل القرن الثامن عشر الذي نشأت فيه علوم المقابلة بين العقائد والسلالات ، فاذا قدرنا أنها تغيرت مع الزمن منذ النشأة الأولى قبل عشرات الألوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها في العصر الحاضر كان هذا التشابه حقا أجدر شيء من الباحثين بالالتفات إليه ، لأنه دليل على أن وحدة السليقة الدينية أقرب جدا من وحدة القرية والخيال ، إذ ليست أساطير الفنون على درجة من التشابه تقارب ذلك التشابه بين الأرواح والأطياف في الأديان والمعتقدات .

إن الدين أعمق في كيان الإنسان من الخيال الذي يولد الأساطير ويخلق أشباح الفنون ، وقد يكون التقارب بين الأصلاء من الأفريقيين والأمريكيين والأوربيين والاستراليين ملحوظا في تقارب الأوصاف بين الأرواح والأطياف حيث لا يلاحظ التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الأدوات وآنية الفخار ، وهي المصنوعات التي تقاس بها طبقات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد في كل عصر من العصور الحجرية أو

عصور المرعى أو العصور النحاسية ، ولكنها على كونها محسوسة يحكمها النظر واللمس وتوحي بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تبلغ من التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الأرواح والأطياف .

وقد تخصص لكل إقليم من أقاليم القارات رجالون مستقلون في دراساتهم للأحياء وتنقيبهم عن الآثار ، فيكتب عن الجزر الأسترالية آسيا الشمالية طائفة غير هؤلاء ، فهم لا ينقلون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم إلى بعض في تسجيل المشاهدات وإثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهم يعرفون المشابهة بين العقائد حين يرجعون إلى المقارنة والمقابلة ويستخلصون منها ما يستخلصون من وحدة الأصول ..

* * *

ولهذه المشابهات يقرأ القارئ عن « أرواح » إقليم من الأقاليم فلا ينصيره كثيرا أن يخطئ فيحسبها أرواح إقليم آخر ، لأنها بمثابة النبات الذي يصنع زرعه على طول السنة في جميع الأرضين ، فيزرع في هذا الموسم أو ذلك ، وفي هذه البقعة أو تلك ، بغير اختلاف كبير في طريقة الفلاحة والحصاد .

يقول باريندر Parrinder في كتابه عن النحل التقليدية في أفريقية : « إن الأرواح يمكن أن تتخذ مساكنها في كل شيء من أشياء الطبيعة على كل قمة وفي ظل كل شجرة خضراء ، وأن التلال والصخور البارزة أخرى أن تكون مأوى للأرواح القوية » .

إلى أن يقول : « وفي الآجام المتشابكة العميقة تسكن الأرواح والأطياف ذوات الخطر والأذى ... وحيوانات الغاب - أو سكان الأرض - كثير منها حرام على هذه القبيلة أو تلك ... فاذا قتل أحدها وجبت الترضية له أو يظل في مظاهرة القاتل طيفا لا يفر منه » .

ويقول شارل واجلي Wagley في كتابه عن « بلدة الأمازون » من أمريكا الجنوبية : « إن بعض القرود تخاف في أعماق الغاب وتحسب فردة .

الجزيرية Guariba آفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على اختلاس ظل الإنسان ... وأشهر أطياف الغاب وأرواحها الكارويرا التي تشبه إنسانا قزما ويقال إن أقدامها ملتفة ورائها ، وهي تعيش في أعماق الغاب ومنها تسمع صرخاتها الطويلة المزعجة ، ويقال إنها مغرمة بشراب الروم والتدخين ... » .

ثم يقول : وطيف آخر من الأطياف الخطرة يدعى ماتن تابيريرا ، يظهر في المدن ولا يظهر كالأطياف الأخرى في الغابات والأنهار .. وأصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الأوروبية .

ويتكلم مالنوسكى Malinowsky علامة الدراسات الإنسانية عن الجزر الاستراالية فيروى قصة الروح التي تسمى عندهم بلوما وتذهب بعد مفارقة الجسد إلى جزيرة أخرى كأنها العالم الآخر . وهم يعتقدون أن الأشياء لها أرواح تستقل منها إلى حيث تسكن أرواح الموتى ، فيزبنون جسد الميت بكل ما كان يزدان به في الحياة ليجرد منه روحه ويبقى بقيته المحسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى كوسى يخاف لقاءه ولكنه يداعب الناس ولا يبالغ في إبدائهم ، وحينما سمع صياحه وجبت له الترضية والمبالاة ، وقد يخشى القوم هناك أطيافا أخرى لها علاقة بأرواح الموتى يتخيلونها دائما في صورة العجائز القباح وقد يشيرون إلى عجوز حية معروفة فيقولون عنها أنها قد أصبحت واحدة من تلك الأطياف ذات العلاقة بالموتى ، وأنها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاويذ .

وأفضل المراجع التي يعتمد عليها في فهم العقائد البدائية تلك الرحلات التي يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واختلطوا بها في جميع أطوار معيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفونها بالسؤال والتحقيق على منوال الرحالين الذين يذهبون إليها لدراسة علم الأجناس أو تطبيقه عليها . ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا زمنا بين القبائل في أفريقية الوسطى الطبيب المشهور البيرت شويتزر صاحب جائزة نوبل منذ سنتين (١) ،

(١) كان ذلك يوم صدر الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٥٥ .

ويؤخذ من مذكراته أن أخوف المحظورات عندها هي التي ترتبط بأهم المراحل في حياة الإنسان ، وهي الولادة والمراهقة والموت ، فقبل الولادة تطيف الأرواح بالأب وتلقنه في الرؤيا أو الإيحاء أسماء الأشياء التي ينبغي للوليد أن يتجنبها في حياته وإلا أصابه الأذى من الأرواح المطيفة بالمكان ، وعند المراهقة يحاط الصبية بالمراسم والعبادات التي تفرضها كل بيئة على حسبها . وأشق ما عاناه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقارنة أجساد الموتى وهو محتاج في استشفاه على الدوام إلى حمل هذه الأجساد ومواراتها .

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب في جواره أن المحظورات خاصة وعامة ، فمنها ما يحرم على إنسان واحد ولا يحرم على غيره حسبما جاءه الوحي من أبيه أو كاهنه ، ومنها ما يعم القبيلة جميعا ولا يستثنى فيه أحد منها ، ويقول الطبيب أن بعض المنذرين لهذه المحرمات قد تأتى شفاؤهم من الوهم الذي غلب عليهم بعد إنذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الأدوات فاجترأوا على مخالفة المحظور وسلموا من العقوبة ولكنهم تخلصوا من عقيدة بعيدة ورسخ في أخلادهم أن الروح الذي أطلقهم من عقال المحظور أقوى من الروح الذي حظه عليهم ، فهو لا يستطيع أن يتعقبهم بالأذى وإن خالفوه جهرة ، لأنهم دخلوا في حماية روح آخر أقوى وأعظم وأخرى بالبالاة والاتباع .

وقد دخلت هذه الأرواح والمحظورات في حساب السياسة كما دخلت في حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التي أوفدها الحكومة إلى أفريقيا الشرقية لتحقيق أسباب الثورة فيها أن « دراسة النفسية » التي تنطوي عليها عبادات جماعة الماو ماو ضرورية لاستقصاء أسباب السمخط وعوامل الثورة ، وعقب الأستاذ ماكس جللمان Gluckman على هذا التقرير بفضل يحمل عن أصول العقيدة بين القبائل ، فروى عنها أنها تؤمن بإله عظيم خالق العالم ثم تنحى عنه ، وأنه سمع من أناس في قبيلة الباوروتس Barotse على الزمبيزي الأعلى إن الإله تخلى عن الأرض ولاد بالسماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، ولم يبق لهذا الإله الآن.

من عمل يستطيعه مع البشر غير مجرد العلم بأخبارهم ، فهم يقولون كلجاء سألهم عن مكان بعيد إن الإله نيامبي Nyambe أعلم وأدرى ، ويدعى زعماء القبيلة أنهم ينتمون إلى هذا الإله من ذريته التى ولدتها له بنته قبل أحد عشر جيلا فملك على القوم فى مكانه ، وهذا سر من أسرار الطاعة للزعماء والثورة على الأجانب والمستعمرين .

* * *

ويرى جلکمان أن المراسم والشعائر حلت بين القبائل الأفريقية محل الصلوات المكتوبة والفرائض المسجلة ، لانعدام الكتابة فى تلك القبائل ، فكل علاقة لها شعائرها ومراسمها وكل حركة تتحركها القبيلة كلها أو بعض أفرادها طلبا للصيد أو انتجاعا للمرعى أو زحفا للغارة على عدوها تتطلب منها الزلى إلى بعض الأرواح والحذر من بعض الأرواح الأخرى وتلجئها إلى اتخاذ المراسم والشعائر المتوارثة فى أجدادها .

وكل ما يصيب الإنسان فهو من كيد روح أو دسيسة ساحر أو من « وراء الطبيعة » على الإجمال . فاذا وطىء فيل إنسانا فقتله فالأفريقى يفهم أن قوة الفيل أكبر من قوة الإنسان ولما استطاع قتله ، ولكنه يسأل بعد ذلك : لماذا كان هذا الإنسان هو المقتول ولم يكن إنسانا غيره ؟ أليس هناك سر يرجع إلى تدبير ساحر أو نقمة روح غاضب أو مشيئة كائن مما وراء الطبيعة ؟ . وهكذا تلتقى الأسباب الطبيعية المعروفة بالأسباب المجهولة مما وراء الطبيعة ، ولا يحس الإنسان السلامة من الكائنات المحجوبة بحال من الأحوال .

وقد تزول العقائد بانقضاء الزمن عليها ولا يزول السحر وأساليبه الموافقة والمضادة التى تلجئ الأفريقى من ساحر إلى ساحر ليُبطل رقيته ويفسد مكيدته ، فلا ملاذ عندهم من السحر إلا إلى سحر مثله أو أشد

منه ، ولا تعليل عندهم لمصيبة يبتلون بها إلا أن تكون من كراهية عدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على النكاية من الأرواح (١) .

* * *

وقد حاول الرحالون والباحثون في الأجناس البشرية أن يرجعوا بالاعتقاد في الأرواح إلى مصدر مفهوم فلم يتفقوا على مصدر واحد ولم يصلوا إلى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة .

فمنهم من يرجع بعقيدة الأرواح إلى الأطياف التي يراها الهمجي في منامه ، وإلى الأحلام التي يرى فيها أنه انتقل إلى مكان بعيد وهو لم يرح مرقده في بيته ، فيخيل إليه أن الأطياف تتحرك في الظلام وتترك الأجسام إذا هدأت حركتها لتجول هنا وهناك حيث تشاء ، وأن الذي يحدث في حالة النوم يحدث في حالة الموت فيسكن الجسد ويبلو ويتحرك الروح الذي فارقه بفراق الحياة .

ومنهم من يرجع بهذه العقيدة إلى طبيعة الاستحياء أي إلى الطبيعة التي تخيل إلى الهمجي أن الأشياء ذات حياة مثله فيعاملها كما يعامل الأحياء ويرضى عنها أو يغضب عليها كالطفل الذي يضرب الأرض إذا صدمته حين يسقط عليها ، أو يشعر بالراحة حين تضرب الأرض أمامه وعاقبها بجريرة سقوطه عليها وإصابته من صدمتها .

وتتمكن هذه العقيدة في خيال الهمجي مع نقص اللغة وخلطه بين الحقيقة والحجاز في تعبيراتها ، فاذا سمع أن الأرض ولدت عيون الماء وأن أباهما انحدر من سحاب السماء لم تزل هذه الصورة تتجسم مع الزمن حتى تنشأ منها أسرة لها أب وأم وأبناء ، ولها مشيئة يلقاها بالترسل والرجاء أو بالسخط والإعراض .

ومنهم من يرجع بعقيدة الأرواح إلى عبادة الأسلاف بعد الموت ، وقد يحدث أن يسمى السلف باسم حيوان كالأسد أو النمر أو الثعلب أو النسر أو

(١) من فصل في مجلة Listener النديية الصادرة في ٢٩ أبريل سنة ١٩٠٤ .

الصقر فيحسب أبنائه مع طول الزمن أنهم تحذروا من ذلك الحيوان ويجعلون له قداسة مرعية توجب عليهم أن يحرموا قتله وأن يتوقعوا للضرر والسقم إذا قتله أحد منهم أو من غيرهم ولم يأخذوا بثأره..

ويكاد علماء الأجناس والعادات البشرية أن يجمعوا على إيمان القبائل الفطرية بإله واحد أكبر من هذه الأرواح المتعددة وأخفى منها في ظواهر الطبيعة .

وقد تقدم من كلام جللكمان أن القبائل في أفريقية الشرقية تؤمن بالإله نيامي الذي ارتقى إلى السماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتياهم ، وهذه العقيدة على الأرجح من بقايا عبادة الأسلاف التي يختلط فيها التاريخ بالخرافة ، وأصلها على هذا الظن متصل بوحدة القبائل في جدها الأعلى ، فهو ربها جميعا حينما اختلفت أربابها وتعددت الأرواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والدراية كأنه الأب الشيخ الذي اعتزل العمل والقتال فلا طاقة له بمنع العداوة بين ذريته من القبائل المختلفة .

ولم ينفرد جللكمان بقصة هذا الإله الواحد الذي تشترك فيه القبائل المختلفة في أفريقية الشرقية ، فان الرحالين جميعا متفقون على إيمان القبائل الاسترالية برب فوق الأرباب يسمى « نانا » أو يسمى بأبي الجميع (All Father) على مثال نيامي في القبائل الأفريقية .

ويتفق الرحالون كذلك على إيمان الأقزام الأفريقيين برب فوق الأرباب. تشترك فيه القبائل وإن تعدد عليها الوفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الأجناس قبيلة فطرية بلغت من ارتقاء الإدراك أن تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنها تقترب من هذه الصورة كلما ارتقت من فوضى العقيدة إلى مرتبة أعلى وأجمع من مراتب النظام .

وليس المدهجى جباناً فان الجبن بين الأخطار المحلقة به أضرب به من الشجاعة ، وقد عودته مواجهة السباع والحياة أن يواجهها علانية وأن يصارعها وينصب لها الأحاييل ويستخدم السلاح المستطاع فيما يعنيه أن يتغلب عليه بالمصارعة ، ولكنه بين الأرواح والأطياف أدام بخطر مستور لا يدري من أين يأتيه ولا تكون الغلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لا يريد أن يتغلب عليه لأنه عنده في حكم الأب أو الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة أولى من التصدى له بالأسلحة والفعخاخ .

ولا بد من مواجهة تلك الأرواح والأطياف بما يكف غضبها ويدفع اذاها ويستجلب رضاها .

ولا بد مما ليس منه بد في النهاية ، فأما السكوت عنها فلا يطاق ، وأما الصراع معها فلا يجدى فيه البأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكانت حيلة السحر هي الحيلة التي انتهى إليها ولم يكن له بد منها بحال .

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التي لا تراض بالأيدي والمراوات أو الحراب .

وظهرت البداة الإنسانية في هذا التخصص كما تظهر عند الاضطراب إليها في توزيع جميع الأعمال .

فلم يكن السحرة المتخصصون لرياضة الأرواح والأطياف أناساً ممتلئين بالحياة صالحين للكر والفر والصيد واقتناء النسوة وإنجاب الأولاد ، بل كانوا على نقيض ذلك أمساخاً عزلتهم الحياة أو انعزلوا بعد اليأس من مجاراتها في مطالعها ، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شبه مناسب يعقد بينهما العلاقات الغامضة ويقرب لهما وسائل التفاهم ، ويوقع في النفوس أثراً واحداً من التوجس والتساؤل والريب فيما وراء الظواهر والمألوفات .

وقد شهد الدكتور شويتزر Schweitzer ترشيح بعض السحرة وقال في مذكراته الأفريقية « إن الدميم السيء لا مطمح له في الحصول على

امراة يتزوجها ، فان كبراءة لا يشتركون له امرأة لنفورهم منه ، 'ويكون
أبوه قد مات فيتملىء بالمرارة ويتحول إلى السحر للانتقام من قومه .

وقالت الدكتورة روث فلتون.. بنديكت Benedict إن بعض قبائل
كليفورنيا من المنيود الحمر يتطلبون علم الغيب ممن يصابون بالصرع ويتعرضون
للغيبوبة في بعض نوباته ، وأنهم يفضلون النسوة المصروعات ولكنهم
لا يتصرون الكهانة عليهن ، وقد يكون الرجل المختار متأثرا بطبعه لا يصلح
للزواج ويلبس لباس النساء مدى الحياة (١) .

ووصف الأب هنري كلوى Callaway برنامج اعداد الساحر لوظيفته
فقال إنه قد يبدو في أول الأمر قويا سليما ولكنه يهزل شيئا فشيئا ويصبح
في عرف القوم « ناعما » ويعنون بذلك أنه يصبح عرضة للانفعال والتأثر
ويصوم عن بعض الأطعمة ويتأذى ببعضها وتطرقه الأرواح والأطياف في
منامه ويهدده بعضها بالموت ، ويقول العرافون أنه يوشك أن يملكه روح
تتصرف به على حكم الأرواح ، وفي هذه الحالة يصاب أهل القرية بالأرق
ويتساءلون عما أصابهم لأن وصول الساحر إلى منزلة « الانيانجا » أي الملهم
المكشوف عنه الحجاب حالة لا تمر في المكان بسلام (٢) .

ولا تنفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر في مبدأ الأمر ، فالكاهن
الذي يقوم بمراسم العبادة هو الساحر الذي يدفع أذى الأرواح والأطياف
ويستجلب رضاها ويسخرها في المآرب التي يختارها ، ثم ينفصلان شيئا
فشيئا فيصبح عمل الكاهن غير عمل الساحر أو يجمع الرجل الواحد بين
الوظيفتين ولكنهم يقصدونه ككهانة في أغراض معلومة ويقصدونه لسحره
في غير تلك الأغراض .

(١) كتاب ألوان من الثقافة Patterns of Culture

(٢) ديانات الأمازوا Religious Systems of the Amasulu

والغالب أن السحر يراد لمصلحة خاصة أو لالحاق الضرر ببعض الأعداء ويعمد فيه الساحر إلى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاما شامل النفع في جميع الأحوال ، وتستخدم فيه أرواح منقطعة للأذى والضرر تعودت أن تتآمر على النكاية والنقمة وأن تستجيب لمن يؤدي لها الأجر ويتقدم لها بمراسم الشعوذة والأعمال الخفية .

ويلاحظ أن الكاهن قد يكون رئيسا للقوم وكاهنا يؤملهم في الصلاة والعبادة في وقت واحد ، ولكن الساحر لا يصل إلى هذه المكانة إلا أن يكون السحر عملا مضافا إلى الكهانة أو فرعا من فروعها التي لا ترتقى إلى مرتبة الصدارة .

ويلاحظ كذلك أن السحرة مشوهون أو مصابون بالآفات ، وأن أدوار النساء العجائز بينهم شائعة غير مهمة ، وكلهم بين رجال ونساء غير أهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور ، وكأنما السحر لديهم عوض عن نصيب مفقود .

وليست الكهانة على الجملة من هذا القبيل ، فإن الكاهن قد يكون من أقدر الناس على الجلد والوجهة والمتعة بالرغد والملذات .

ويسبق إلى الظن أن السحر والكهانة كلها خداع في خداع من تليق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطيء غير معقول ، لأن السحرة والكهان على انصافهم بالذكاء والدهاء قد نشأوا بين أقوام توارثوا العقائد واحتفظوا بكثير من العادات التي توهوا أنها كانت نافعة لمن قبلهم وأنها تنفعهم اليوم إذا أحاطوا بعلمها وحذقوا تجارتها ، وربما لام الساحر نفسه إذا قصر في بلوغ ما يطلبونه منه واجتهد في علاج ذلك القصور بتكرار التجربة أو سؤال الأقدمين الذين سبقوه في الصناعة ، وهو بطبيعة عمله لا يستغنى عن الخداع والتليس في معاملة قومه ، ولكنه لم يكن قط خادعا في كل شيء ولا يزال خادعا مخدوعا في جوهر السحر كله ، وهو الإيمان بفعل الطلاس وقوة الأرواح .

وكلما انفرجت المسافة بين وظيفة الدين ووظيفة السحر ترقى الإنسان
الفطرى من فوضى الأرواح والأرباب ونبذ التسوية بينها وتعود التفرقة
بينها فيما يطلبه منها ، فمنها ما يقصده للنفع كما يقصده جميع أبناء القبيلة ،
ومنها ما يقصده ليتواطأ معه على الإجرام والنكايه كأنه بعض الشطار الذين
يعيشون اليوم بتأجير أنفسهم للنكايه والعدوان .

ويحدث فى هذا التطور من التمييز بين الأرواح والأطياف أن تعرف
بأسماء وتوسم بعلامح وتلبس « بشخصيات » وتخصص كل « شخصية »
منها لرسالة تتجرد لها وتقدر عليها حيث لا يقدر سواها .

وفى هذا الطور ، أو هذه المرحلة ، يتبها الذهن للتمييز بين عمل الإله
وعمل الشيطان .



أنواع ردِّجات فى الحرام والمحظور

تكاد المحرمات فى القبائل البدائية أن تبنى على المباحات والمحللات .
لأن المحرمات تشمل القداسة والنجاسة والعصيان والاحتقار والاستقذار .
فهناك أمور محرمة لأنها عظيمة مبهجة ، وأمور محرمة لأنها نجسة أو مشؤومة ،
وأمر محرمة لأن إتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدير ، وأمور محرمة
لأنها تحتقر وتعاف .

وعدد هذه المحرمات فى جملتها كالخير يكاد يشمل كل عمل يزاوله
الإنسان الفطرى ، بل ربما كان المباح نفسه داخلا فى التحريم على وجه
من الوجوه ، لأنه لا يباح إلا بصلوات وشعائر يعرفها الخبراء ولا تعم
معرفة كل أحد ، كالصيد والزرع والحصاد وما شابهها من أعمال الجماعة
أو الفرد ، فإن الخوف من الإقدام عليها بغير صلواتها ورسومها يجعلها فى
حساب المحظورات .

وقد ترقى الإنسان وترقت معه اللغة ولم تزل فى تعبيراته آثار للتقابل بين
القداسة والنجاسة فى الممنوعات ، فكلمة الحرمة فى اللغة العربية تدل على
الشيء العزيز العظيم الذى يصان ويحمى بالأرواح والأموال ، وقد يشمل
الحرام كل إثم يعاب أو يعاف .

وكلمة المنيع أو الممنوع تدل على القوة والرعاية كما تدل على الرذيلة
التي يجب على المرء أن يمتنع عنها ولا يقترب منها .

وكلمة القديسين والقديسات كانت تطلق عند البابليين والكنعانيين
على الذكور والإناث الذين ينصبون أنفسهم للبغاء فى حريم الربة « عشروت »
أو السارية ، وقد ترجمت هذه الكلمة فى كتب العهد القديم بكلمة المأبونين

والزانيات ، وهى فى الأصل من القديس أو المقدس ، ويقال عن الربة .
نفسها أنها كانت خلية الأرباب ولدت منهم سبعين إلها « إيلم » .

وفى القبائل البدائية ثلاثة أنواع من المحرمات المقدسة وهى « الطوطم »
والوثن أو التعويذة ، والتابو أو الحرام الممنوع .

فالتوطم Totem هو الحيوان الذى تحرم القبيلة قتله وصيده لاعتقادها
أنها تناسلت منه أو لأنها ترمز به إلى معبودها وأصل وجودها .

والوثن أو التعويذة — وهو الذى اصطلح علماء الأجناس على تسميته .
بالفتيش Fetish — شىء جامد مصنوع أو طبيعى يحمل فى أطوائه روحا
لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة ما دام على شرعتها
فى المباحات والمحظورات ، وقد تكون الوثن صورة أو حجرا أو حصاة أو
قطعة من جذع شجرة أو ألفافا من الشجر وعروق الشجر وما إليها ، يصنعها
السحرة أو يصنعها الكبار للصغار .

والمحظور الثانى أقل درجة من الطواظم والأوثان ، لأنه قد يتفرق .
ويتمخصص فىكون حراما عند بعض الناس حلالا لغيرهم فى البيئة الواحدة ،
بل قد يكون مستحبا مطلوبا لمئات من الناس ولا تحريم فيه على غير آحاد .
معلودين . وقد روى الدكتور شويتزر ضربا من هذه المحظورات لا مرجع
لها غير التحكم من بعض الأرواح المزعومة التى تكشف عن إرادتها قبل .
وضع الجنين ، فتخبر أباه فى الرؤيا باسم « التابو » الممنوع على الوليد ،
فمن هذه المحظورات أكل بعض الطلح أو البلور ، ومنها ضرب الوليد على
ظهره ، ومنها حمل المكنسة أو بعض الآنية ، ولا تكذب النبوءات فى شأن
« التابو » بل يصدقها القوم كل التصديق حتى لتقبل عقولهم أن الوليد .
يولد ذكرا ثم يتحول إلى أنثى إذا خولفت نبوءة أو علامة مرصودة ،
ويفعل الوهم هنا فعلة القاتل الذى لا تجدى فيه النصيحة ولا الإقناع ، فى
ناحية « سميكا » رأى الطبيب صينيا فى مدرسة البعثة أنباء رفاقه أنه أكل من .

إناء طبخ فيه الطلح قبل ذلك ولم يغسل ، وكان الطلح محظورا على الصبي
بنبوء آبائه ، فلم يكذ الصبي يسمع الخبر حتى تشنجت عضلاته ولزمه
التشنج إلى أن مات بعد ساعات .

وتحيط هذه التابوات كثيرا بعلاقات الجنسين وبلوغ سن المراهقة
في الذكور والإناث ، فيندر بين قبائل الأرض البدائية أن ترى قبيلة خلعت
من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتتزل الفتاة ولا تكلم أحدا غير
أمها أو لا تكلمها إلا بصوت خفيض ، ويؤخذ الصبي بعيدا من بيته ليغسل
في العيون المقدسة من روائح الأنوثة التي لصقت به من مصاحبة أمه ،
يجرى له الكهان أو كهراء السن شعائر القطام ، ومنها في بعض قبائل
الصحراء أن يفارق أمه زمنا أو يدخل الكوخ وهي مستلقية على بابه
فيظن على بطلان علاقه الانفصال في موضع حمله حيث اختلط بخوف الأنثى
وهو : "تئين" .

و...ل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس
والولادة ، وما تبين من تلك الشعائر أنهم ينسبون نسبة الابن إلى أبيه
بالمراسم والشعائر ولا يعتقدون أن مجرد الاتصال بين ذكر وأنثى يحقق
الولادة والنسبة إلى الآباء ، ففي القبائل يفرض العرف على الرجال أن يقدم
زوجته لضيفه الغريب ولا يمنعه ذلك أن ينسب أبناءها جميعا إليه ، لأنه
هو الذي جرت بيته وبينها مراسم الزواج .

ولا يعجب أبناء هذا العصر من تلك الخرافات التي تحيط بالجنس
ومراسم النسبة بين الأبناء والآباء ، ففي عصرنا هذا من يعتقد أن الولد من
نسل الشيطان إذا ولد من غير زواج مشروع ، وقد صدرت المنشورات
من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف أمريكا الجنوبية وشيوخ الأمراض
الزهرية في العائدين منها فكان فحواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان ،
ولما انتشرت عنواه بين المتزوجين والمتزوجات في أواخر القرن الخامس

عشر، أصدر الإمبراطور ميكسميليان منشورا. ندد فيه بالخطاة. - وأنذرهم بالتوبة. أو تدموم هذه الضربة السماوية عقوبة لهم على العصيان (١).

وتتفق جميع المحرمات البدائية على تفنيد ما ذهب المؤرخين الذين يقولون عن الديانات ومحرماتها ومباحاتها أنها حيطة اجتماعية تهدي إليها بدمية المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبة المجرمين وحماية الأبرياء من عدوان المجرم والإجرام ، فكل هذه المحرمات إنما ترجع إلى شيء واحد وهو إغضاب رب أو روح وتخطي الحدود التي تمنعها الأرباب أو الأرواح ، ولما كلها علاقة بعالم الخفايا والأسرار وما نسميه اليوم بعالم ما وراء المادة لأنه لا ينحصر في المحسوسات المادية . وأما الجرائم وعقوباتها فهي أعمال مفهومة مقصودة ترجع إلى الأسباب الطبيعية التي يحيط بها علم الإنسان كما يحيط بها إرادته ، وهي تعالج بالقصاص المقدر وبالثأر والانتقام وأداء الغرامة والدية ، بل يستمد الثأر قوته أحيانا من عالم الروح كما يقال عن روح القتيل في قبائل الجاهلية العربية أنها لا تزال هامة مقيدة بجانب القتيل تنافى العابرين بها ، اسقوني اسقوني حتى يؤخذ بالشلو فتشتر بالرى وتستريح فلينسب المحرمات الدينية هي التي تتوقف على مطالب القصاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هي التي تتوقف أحيانا على عالم الأسرار والأرواح . وقد ثبت من أطوار المحرمات في القبائل عامة أنها تتقدم مع تقدم الإنسان في ثلاثة أدوار متشابهة .

فالطور الأول أن ترقى من الجود المجلية إلى جود عالمية أو كونية تشمل السماوات والأرضين ، فبعد الرب الذي يسيطر على ينبوع ماء أو شجرة في غابة أو بقعة في جهة من جهات الإقليم يترقى الإنسان إلى فهم الرب الذي يسيطر على السحب والأنهار وأفلاك السماء ، وكلما أدرك القوانين التي تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى إدراكه لقدرة الرب الذي

(١) الكهان والشياطين والعقائير والأطباء المولود من نساء هجارت.

يملك زمامها ويصلى له المصلون لإجرائها في مجراها المطلوب وتحويلها عن.
الحجرى الذى يحذرون عقابه .

ويقترن بهذا الطور ، أو يأتى بعده طور التميز الواضح بين عمل الدين
والعبادة وعمل السحر والطلاسم السحرية ، فلا يستطيع الساحر ما يستطيعه
الكاهن ، ولا يقصد الكهان عامة فيما يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولى
الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن إنما يتوسل إلى الآلهة ويتحرى
رضاها بالصلوات التى بحسبها دون غيره ، أما وهو ساحر فهو يسمخر
الأرواح أو يعاملها على أساس التواطؤ والتعاون على العمل الكريه الذى ينفر
منه المشتركون فيه ولا يجهرون بسرهم عن رضى واختيار .

وكلما اتضح التميز بين العبادة والسحر اقترب الإنسان من الطور
الآخر الذى يستقل فيه بمشيئته بين الوظيفتين .

ففى الحياة البدائية يظل الإنسان رهينا بمشيئة الأرواح التى تنفع وتضر
وتنطوى له على الصداقة أو على العداء ، وكلها فى رأيه تعمل ما يحلو لها
ولا يحق لأحد أن يحاسبها عليه ، ولكنه كلما ترقى فى التميز بينها ملك
الميزان الذى يزن به أعمالها وأقدارها ، فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف
منها مرؤسين ورؤساء يحق لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على أعمالها ،
وأحس فى طويته أن يطيع بعضها ضرورة وغضبا ويطيع بعضها حبا واختيارا .
لأنه أهل للطاعة والرجاء .

ومن هنا تصبح الأرواح نفسها مطيعة أو عاصية ، ومأصية على السنن .
القويم أو منحرفة عن هذا السنن إلى الخطة العوجاء التى ينكرها كبار
الأرباب .

ومنى أتيح للإنسان مقياس يقيس به الأرواح والأرباب ويقيس به
أعمالها وحقوقها فهو إذن أهل للمشيئة والتبعة وأهل للتمييز بين الخير والشر
وبين سلطان الإله وسلطان الشيطان .

أنواع الشيطنة

ما هي أنواع الشيطنة في العالم :

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعيا ، بل ضروريا إذا وضع في صيغته أخرى ، فسألنا : ما هو موقف الشر بالنسبة إلى القوة الكونية الكبرى ؟

وهنا أيضا ننبين أن فكرة الشيطان أعمق جدا مما يخطر للمتعمجل الذي يحسب أنه يحل كل مشكلة بكلمة الوهم أو التلقيق ، أو يحل كل مشكلة بأحالتها إلى جهل الأقدمين وضلالهم في الحس والتفكير .

فهناك صور للشيطنة بمقدار ما في الذهن البشري من فكرة عن الشر في هذا الكون : هل الشر قوة أصيلة ؟ هل هو قوة إيجابية عاملة ؟ هل هو قوة سلطوية ؟ هل هو عدم الخير ؟ هل هو نقص الخير ؟ هل هو عقبة في طريق الخير ؟ هل هو عقبة تريد وتعمل ما تريد ؟ هل هو عقبة لا إرادة لها ولكنها تضاعف جهود الخير وتستدعيه إلى مزيد من الحركة والثبات ؟

كل فكرة عن الشر يمكن أن تخطر على الذهن البشري قد تمثلت في صورة من صور الشيطان ، وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي تدعو المفكر الذي يحترم عقله أن يفهم الصور الدينية على حقيقتها أنها لغة حياة تصور الوجود الحقيقي تصويرا صادقا على أسلوبها الذي يستحق الفهم والتعمق والنظر إلى ما وراء الظواهر والألفاظ .

كان الشر أرواحا ضارة متفرقة في اعتقاد الإنساف على الفطرة الهمجية فلما أصبح مسألة كونية عامة تمثلت صورته في حدودها الكونية على شكل معقول ، وسبقت المذاهب الفلسفية بمراحل بعيدة في هذا المضمار .

كان الشر في تقدير الديانة المجوسية القديمة قوة فعالة معادلة لقوة الخير :

كان في الوجود خير وشر كما فيه نهار وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها ولم يكن مجرد غياب النهار .

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فاذا غاب النهار فهناك ليل ، وإذا غاب الليل فهناك نهار .

كان للنور دولة وللظلام دولة ، وكان لهذه جنود ولتلك جنود ، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالمعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لأن يفرد بنفسه في معزل من القوة الأخرى ، فلا يتوقف وجود الشر على وجود الخير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهما موجود بحقه وبقدرته وبعمله كما يوجد الضدان الصالحان للحياة والبقاء .

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التي يصنعها ، وكل منها حسن في نظر نفسه ، محمود بمقياسه لا يبالى بمقياس غيره ولا يثمنه .

ثم تراجعحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل المعسكران متقابلين ولكن إلى حين ينهي آخر الأمر بهزيمة الظلام وغلبة النور ، ثم يبقى الظلام شيئاً يلوذ به أنصاره فيختفون فيه ولا يظهرون إلا بصنار ، وإنما هزيمتهم اختفاء وليست بالفناء ولا بالزوال .

وعظم التفاوت بين القوتين شيئاً فشيئاً حتى أصبحت قوة الشر كقوة الأمير التابع مع السلطان المتبوع ، فهو يستطيع شيئاً إلى بجانب سلطانه ولكنه لا يستطيع جميع الأشياء ، ولا طاقة له على طول الملبى أن يجاريه في كل شيء .

ومن الهين متعادلتين تحول الخير والشر إلى إله كبير وإله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالاتاً فيتصر الإله الصغير وينهزم الإله الكبير ، وقد يؤول الأمر بينهما إلى معركة حاسمة أو يظل العراك بينهما سجالاتاً إلى أن تتزول الأرض والسماء .

ثم آمن الناس بإله واحد هو الخالق المبدع القائم بذاته ، لا وجود معه للشر إلا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر في هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله .

وفي هذه الصورة ظهر الشيطان في ديانات الأمم الكبرى ، ثم ظهر في الديانات الكتابية بمختلف الأسماء ، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والإفساد . ولا تدل على الخلق والتكوين ... كلها قوة سلبية ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملا من الأعمال .

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، أو تملى للنقص في عيوبه ، أو تقف في طريق الكمال عقبة تصد الساعين إليه ، أو تزيف « العملة » الإلهية فتجعل الزائف منها كالصحيح في رأى المضلل المخدوع . ولكنها في جميع أحوالها قوة سلبية وليست بالقوة الموجبة الموجودة بأية حال .

وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه . وقد يخرج الشيطان على أمر الله ، وقد يشوه الخلق وينقصه ويستتر محاسنه ويبدى عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ولكنه يعمل تابعا ولا يعمل مستقلا في كون من الأكوان غير الكون الذى خلقه الله . وفي هذه المراحل جميعا يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونية الكبرى . فهو المتمرد أو هو « الضد » أو هو الواشى النمام أو هو الساعى بالفتنة والمغرى بالفساد والموغر للصدور .

وما من اسم للشيطان بين هذه الأسماء إلا وهو يحمل في دلالاته معنى الإفساد والمنع والتشويه ، فليست له قدرة على الخلق والإنشاء إلى جانب قدرة الله .

ولما تقررت المقاييس الإلهية في الأخلاق والأعمال تقررت المقاييس الشيطانية تبعا لها وبالنسبة إليها ، فكان الجديد فيها أنها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا ترسم اعتبارا في الواقع أو في الخيال .

(إبليس)

وقد عالج الشراح الدينيون أن يلمخصوا « الشيطنة » في صفة واحدة. تجمع عنصرها ويقوم به كيائها فذكروا الكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحسد وذكروا الكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صفات لا تحسب من لوازم الشيطان إلا بعد علم بوجود الإله المتصرف في المقادير والأكوان .

فالكبرياء افئذيات على مقام الإله ، والعصيان خروج على شريعته ، والحسد إنكار لنعمته واعتراض على تقديره ، والكراهية صفة قد يتصف بها الأبرار حيناً بعد حين إذا كانت كراهية لهذا العمل البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ، ولكنها إذا كانت قوام الطبيعة كلها فهي صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الإلهية في الصميم وهي الحب ولوازمه من البر والإنعام . أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء .

على أن الأرواح الأولى في جاهلية الإنسان قد تطورت في اتجاه آخر مع هذا الاتجاه في مجال الخير والشر وعالم النفس الإنسانية بما يعرض له من صلاح وفساد .

ذلك الاتجاه الآخر هو تطورها فيما يتعلق بقوى الطبيعة وظواهر السماوات والأرضين .

فهنا أرواح من الجان الخبي لها عمل غير صلاح النفس الإنسانية وفسادها ، ولها قدرة خاضعة لسلطان الإله ومن يصطفيه من عباده ، وينسب إليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الإنسان .

وليست قدرتها هذه لأنها تعلمت ما لم يتعلمه الإنسان ، ولا لأنها ذات عقول أكبر من عقله ، وأصلح منه للفهم والتفكير .

ولكنها قدرة تأتيتها من عالم الأسرار الذي تعيش فيه ، فهي تسخر القوى الطبيعية لأنها تعيش بين أسرارها وتحسب منها أو في حكمها . وإذا فطنت للمعنى الدقيق الذي لم يفطن له الإنسان فانما تأتي فطنها كذلك من .

اطلاعها على الدقائق والحفايا ونفاذها إلى العالم الذى يطرقه حس الإنسان ولا يتسلل إليه عقله .

وهذه هى شياطين الفنون والصناعات ، تبنى الصروح وترفع الصخور وتنهض بالأثقال التى تعابها كواهل الإنس وتنوء تحمها أدواته وصناعاته ، وتدخل فى ثنايا الخفاء فتلهم الشاعر ما يدق عن سائر بنى آدم من غير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء وأمثالهم من أصحاب الفنون حال كمس الجان وغيوبة المخبولين لأنهم يخاطبون الجان ويفقهون عنها ويلحنون منها أسرار أغاها وإشارات وحيها .

وتلك هى أنواع الشيطنة من جانبها فى اتجاه الضمير وفى اتجاه الذهن والقريحة .

فى اتجاه الضمير ترتبط « الشيطنة » بالصالح والفساد والخير والشر . ومساعى الإنسان نحو الكمال والرشاد .

وفى اتجاه الذهن والقريحة ترتبط « الشيطنة » بالأسرار والبواطن وبالوحي الخفى وغرائب العبارة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل وإشارة .

وسيكون لكل نوع من هذه الأنواع نصيبه فيما يلى من الصفحات .

أَسْمَاءُ الشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ

تمثلت قوة الشر « العالمية » في شخصيات مرسومة الملامح معرفة الأسماء ، اشتهرت بها في كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التي سبقت ظهور الديانات الكتابية ، وسندكر هذه الشخصيات بملاحمها وأسمائها عند الكلام على أهم تلك الحضارات التي لها علاقة بصورة الشيطان كما تخلفت في الأعصر الحديثة ، ولكننا نتقدم قبل ذلك بخلاصة عاجلة لأسماء الشيطان الأكبر التي بقيت إلى اليوم لورودها في الديانات الكتابية ولأنها قد أصبحت ذات مدلول لغوي إلى جانب مدلولها الديني ، فان حضور هذه الأسماء في الذهن يبرز معالم الطريق إلى الوجهة التي انتهت إليها سوابق التاريخ ومقدماته ، منذ ظهرت « شخصيات » الشيطان الأكبر في الحضارات الغابرة إلى أن ظهرت شخصيات هذا الشيطان في كل ديانة من الديانات الكتابية التي أسلفنا أن اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالة اللغوية إلى جانب دلالة الدينية .

واسم « الشيطان » بالألف واللام هو أشبه هذه الأسماء ، لأنه ورد في كتب الديانات الثلاث ، ودخل في تعبيرات اللغات الأوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية ، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطاني ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التي تنطوي على الجبث والبراعة وحب الأذى والتمتع بالإيذاء كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه ويُسره أن يلحق آثاره وهو مستتر وراءه .

والرأى الغالب إن كلمة « الشيطان » هذه عبرية بمعنى الضد أو العدو ، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية أنها لغة اليهود وأن ديانة موسى

عليه السلام سابقة للمسيحية والإسلام ، ولكنه ظن يصدق في حالة واحدة :
وهي أن يكون اليهود أصلاء في الكلام عن الشيطان لم يسبقهم أحد من
المشاركة إليه ، إلا أنها حالة لم تثبت . وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها ،
فإن اليهود قد وصفوا الشيطان بعد هجرتهم إلى بابل ، وليست طريق بابل
موصلة دون الأمم السامية غير اليهود .

والأرجح عندنا أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية قديمة فيها ، لا يبعد
أن تكون أقدم من نظائرها في اللغة البابلية ، لأن اللغة العربية قد اشتملت
على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ، على أى احتمال وعلى كل
تقدير .

ففيها مادة شط وشاط وشوط وشطن ، وفي هذه المواد معانى البعد
والضلال والتلهب والاحتراق ، وهي تستوعب أصول المعانى التى تفهم
من كلمة الشيطان جميعها .

فالشطط من الغلة الذى يدخل في أنحص عناصر « الشيطنة » والشط
بمعنى الجانب المقابل قد تلحظ في مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان .

وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه ، وانطلق
شوطا أى ابتعد واندفع في مجراه ، وشطن أى ابتعد فهو شيطان على صيغة
فيعال .

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان ، ويقال في بعض
التفسيرات إن هذا المعنى هو المقصود من « طلعتها كأنه رعوس الشياطين » ،
وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم في صورة الحية
حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة ، ولم تنقطع العلاقة قط بين الحية والشيطان ،
ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام — وهو عربى باتفاق المؤرخين — أن
الشيطان كان معروفا بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقا لعهد
خروج بنى إسرائيل من مصر ، ويؤخذ من تاريخ الأدب العربى في
الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان في أدواره الفنية والأدبية مع السحرة

والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزدوا على وضعه في موضعه من المأثورات العبرية .

* * *

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر في اللغة العربية هو اسم « إبليس » الذي يختلف اللغويون في أصله كما يختلفون في نسبة كلمة شيطان إلى إحدى اللغات السامية .

والمتكلم العربي يفهم من وصف إنسان من الناس بأنه « إبليس » كل ما يريده القائل من هذه الصفة ، فهي دالة في كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والسعي بالفساد ، ولم تحمل الكلمة واحدة من دلالاتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة مستعاراً من صفات إبليس في العقيدة الإسلامية .

ويرى بعض الغربيين أن الكلمة في أصلها يونانية من كلمة ديابلوس Diabolos التي تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقعية ، وأصلها في اليونانية من ديا Dia بمعنى أثناء وبالين Ballein بمعنى يقذف أو يلتقي ، ومعنى الكلمتين معا قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم إلى معنى الوقعية .

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين إن كلمة ديفل Devil أى الشيطان في اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر Do-evil أى من كلمة « دو » بمعنى يفعل وكلمة « إيفل » بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نيل هذا التركيب مع أنه أقرب إلى صفة الشيطان من الصفة التي توحى بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمهّل والاعتساف .

ولسنا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، ولكننا على يقين أن « شخصية » إبليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التي تستفيد منها مادة « الإبلّاس » أى فقد الرجاء . فان ضياع الأمل ألزم صفات إبليس على السنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذي يضرب

بأهل إبليس في الجنة مرادفا لمعنى الأمل الضائع كل الضياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة إبليس وكلمة الشيطان في دلائل الشخصية . فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء . وكذلك قد فرقت بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة الملموحة بين الشيطنة والابلاس .

والغريبون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانية في صيغة النعت وقلما يستخدمونها في صيغة العلم . فادا قالوا عن شيء أنه « ديابولى » أو إبليسى فالمفهوم منه أنه عمل من أعمال انترد والجبروت لا يلزم أنه سيء كل السوء وإنما يلزم أنه خلا من الصفات الإلهية أو الصفات « الرحمانية » على الخصوص . وكذلك توصف الثورات الجائحة التي تدمر الظلم وتنسف معالم الطغيان . فهى من الجبروت بحيث توصف « بالديابولية » ولكنها من العنف بحيث تخالف الأعمال « الرحمانية » في الرفق والرضوان .

* * *

ومن أسماء الشيطان التي دخلت في الدلالات اللغوية اسم لوسيفر Lucifer أو حامل النور ، وهو في أصله اللاتينى اسم الزهرة حين تكون « كوكب صباح » ولم تكن له من مبدأ الأمر دلالة سيئة ولكنه جاء في كلام النبي أشعيا في معرض التبكيت للملك بابل الذى سمي نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح « انه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء » إن المقصود هو الزهرة وإنه كناية عن الخيلاء التي تقود صاحبها إلى السقوط . على أن سفر الرؤيا يذكر على لسان السيد المسيح أنه تحدث عن نفسه فقال : أنا كوكب الصبح المذير .

وإذا وصف إنسان اليوم بأنه شبيه « لوسيفر » فالمفهوم من هذا الوصف أنه يلمع ويتخايل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الساطعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق ، ولا يشعرون له بالرتاء الذى يصاحب الحمد المنهار .

ويذكر الأوربيون بعزوبوب وبعزبول في مقام التهمكهم بالرتاسبة الشيطانية ، وأصل بعزوبوب إنه إله معبود في عقرون يقال عنه إنه رب الطب ، وأنه يشفي المرضى لأنه سيد الشياطين ، وكانت الأمراض العصبية كالجنون والشلل والفالج والصرع والجزال تدسب إلى تلبس الشيطان بجسم المريض .

ومعنى بعل زبوب رب الزباب ، فحواه العبريون إلى بعل زبول أى رب الزبالة يسخرية منه وتحقيرا لأمره ودعواه ، لأنهم كانوا ينكرون عبارة البعل ويدعوب إلى عبادة « يهوا » أو الاليل . وقد قالوا حين سمعوا بمعجزات السيد المسيح في شفاء المرضى أنه يشفيهم بمعونة رب الشياطين بعزبول .

والدلالة اللغوية التي يفيدها وصف « بعزبول » في أساليب العصر الحاصر هي الإقرار بالقدرة على قمع الشر لأنها مستمدة من الشر نفسه . فهي الشيطنة التي تقمع الشياطين لزيادتها عليها في الشيطنة . لا لأنها تصلح تبتغى الإصلاح ، وهي إلى ذلك لا ترتفع في قدرتها عن قدر الزبالة والذباب .

* * *

وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مفستوفيلس ، ويقال إنها مأخوذة من كلمة يونانية مركبة تفيد معنى كراهة النور ، ويرجحون أنها من « مى » بمعنى لا و « فوس » بمعنى نور و « فيلوس » بمعنى يحب . ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهي مستمدة من السحر البابلي الذي سرى إلى العرب على أيدي اليهود واليونان ، وتمثل روحا من أرواح النحس التي تتسلط على بعض الكواكب ويستعان بها على النكاية ونخبة الشهوات السوداء .

وشيطنة مفستوفيلس « ذهنية » مؤسومة بعيوب الذهن في أسوأ حالاته من السخرية والاستخفاف والزراية بالمثل العليا واستباحة كل شيء بالحيلة والمكر والدهاء ، فهو ذهن يصنع الشر لأنه لا يبالي الشر والخير على السواء ، وإذا طاب له الخير فعليه غير مختبط بفعله ، كما أنه يفعل الشر ولا يلووم

نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى خيبة الأمل في الصلاح والفصيحة لأنه
يثبت بذلك فلسفة السخرية وسخافة المثل الأعلى ، ويدفع عن نفسه نقد
الناقدين واحتقار المحتقرين .

وقد كان مفستوفليس في القرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة
السوداء ، وكان رجال الدين يتخذونه مثلاً للعلماء الكفار الذين غرتهم
المعرفة الدنيوية فانصرفوا إليها وشغلوا بها عن معارف الدين .

ويتردد من حين إلى حين اسم إله الخراب أو إله القفار « عزازيل » .
وهو اسم ورد في العهد القديم واختلف الشراح في نسبته إلى أصله ،
ويرى بعضهم أنه من مادة الإزالة العريية ، ويقول آخرون أنه كان رئيس
الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فأعجبهم « بنات الناس » وتزوجوا منهن .
ثم انهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء ويقال أيضا إن إبليس كان يسمى
عزازيل ثم سقط فزال مكانه من السماء .

وقد كان من عادة اليهود أن يقترعوا على ضحيتين تذبح إحداهما
للرب « يهوا » وترسل الثانية محملة بالخطايا إلى عزازيل رب الأرض
الخراب ، وشيطنة اليوم في لغة الحجاز مرادفة لمعنى العظمة التي تحتفظ بحق
التفصحية لها وحمل القرايين إليها ، ولو كانت تساق إلى عرش يستوى على
مملكة الخراب .

وليس بين أسماء الشيطان الأكبر التي دخلت في مدلولات اللغة ما هو
أشهر ولا أدل من هذه الأسماء : الشيطان وإبليس ولوسيفر وبعلزبول
ومفستوفليس وعزازيل ، فهي اليوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من
معاني الشيطنة كل ما نستقصيه فيما يلي متفرقا عن تواريخ الأمم والديانات
حول « قوة الشر الكبرى » أو قوة الشر العالمية ، في موقفها أمام عوامل
الخير والكمال .

الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التي تمثلت فيها قوة الشر في صورة شخصية مميزة باسمها وملاعجها حضارة مصر القديمة .

فمن أقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازنين الجزاء على الخير والشر والفضيلة والرذيلة وشروط البقاء التي تستوفيها الروح لتتبع بالحياة الأبدية في العالم الآخر . ولم يكن العالم الآخر عندهم مؤجلا أو منتظرا في المستقبل بعد خراب هذا العالم الدنيوي ، ولكنه كان امتدادا للعالم الذي هم فيه وهو الديار المصرية ، فخراب الدنيا هو خراب الديار المصرية وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتخيلوها ويتخيلوا عالما قائما بعدها ، وإنما كانوا يتخيلون مصر عالمين دائمين في كل وقت ، أحدهما ظاهر يسكنه أحياءهم والآخر باطن يسكنه موتاهم ، فاذا حدث الخراب في الأرض قائما هو عارض يخفيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يزول العارض وتعود البلاد سيرتها الأولى مع انتظام الحكم على سن العدل والإنصاف ، وتأتي الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الأرض مستبقية لمطالبها ومآكلها ومشاربها في ظل حكومة كحكومتها ، أو هي في ظل حاكم خالد كان فعلا في يوم من الأيام حاكم الأرض المصرية أثناء حياته الفانية .

وفي كل أمة من الأمم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب قصة عن نقمة الإله الأكبر على الجنس البشري وندمه على خلقهم وتفكيره في إبادةهم عقابا لهم على ذنوبهم ، وتختلف هذه الذنوب باختلاف الأمم والكهانات ، فهي تارة مسألة تقصير في الضحايا وتارة مسألة غير « إلهية » من المعرفة البشرية وتارة أخرى مسألة فساد واشتغال بالذات إلى غير ذلك مما سجلته قصص الخلق والعقاب في جميع الأساطير الأولى .

أما هذه القصة في الديانة المصرية فهي قصة حاتم يغضب على المحكومين لأنهم ثاروا عليه وهموا بخلعه لأنهم استضعفوه وظنوا أنه شاخ وهرم فلم تبق فيه بقية للقدرة على ولاية الأمور.

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة في هيكل سيتي الأول الذي بنى حوالي سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد ، وخلاصتها ان الإله الأكبر « رع » علم بتآمر البشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم في أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأي على إبادة العصاة ، وأرسل الإله الأكبر عينه عليهم فألقاهم قد هجروا الديار ولادوا بالجبال ، وتعمقهم جنوده فألحقوا فيهم القتل حتى فاضت الأرض بالدماء وبقيت منهم بقايا تتوارى هنا وهناك من زبانيته ، فحزن « رع » لأنه أحس حقا بالعجز عن إبادة العصاة أجمعين وطفق بعض الأرباب يؤاسونه ويقاؤون له : إن مشيئته وقدرته سواء ، فكل ما يشاء فهو قادر عليه .

وتتم القصة على صورة أقرب إلى الرفق والمسامحة فيقال في ختامها إن « رع » سئم الكنود من رعاياه فأجمع نيته على الاعتزال والإقامة في السماء ، فندم الناس على كنوهم وعصيانهم وتابوا إليه فلم يعدل الإله الأكبر عن نيته ولكنه أمر إله الحكمة « توت » أن يلقي الناس أسرار الحكمة وتعاونيد الوقاية من الآفات ومنها الهوام والبعابين وأن يهدي بها إلى السلامة من بهو أهل الهداية .

وتروى قصة النقرة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف في الأساطير الأولى ، فأشدها وأصرمها هذه القصة التي نقشت على هيكل ملوكهم أن يبالغ في بطش الأرباب راجعوا الإله الأكبر وراح بعضهم يمزج الجعة بالأصباغ الحمراء ليحكي بها لون الدم ويزعم للأرباب الساجدين أنه قد أريق منه ما يكفي للزجر والعقاب .

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر أو قوة الإله الشرير موروثه من أقدم العهود تنسم كما يتسم كل شيء في مظهر القديمة بالمحافظة

الشديدة واستبقاء الكثير من مخلفات عصر سابق 'وكل عقيدة مهجورة ،
فينكثز فيها الاختلاف والتناقض على حسب الحواشي والإضافات التي تلصق
بها من كل حقبة مرت بها في تطريقها البعيد .

ففي صورة إله الشر بقية من عبادة الأسلاف وبقية من امتزاج السيجر
بالعبادة وبقية من عبادة الشمس وبقية من تعدد الآلهة بين مصر السفلى
ومصر العليا ، وفيها مع ذلك آثار تدل على أنها في جملتها معلومات
تاريخية واقعية عرض لها التشويه وانطوت في عداد المجهولات التي يستدل
عليها بالتخمين والتبرجيح .

ومهما يكن من خلاف في العقائد المصرية العريقة فالقاعدة المطردة
في تمحيص أباها أنها مشتملة ولا بد على شيء يتعلق بكيان الأسرة وشيء
يتعلق بكيان الدولة وشيء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعي ، أو على
ما نسميه اليوم بالنظام .

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما خلصت من الروايات المتعددة
على طول الزمن ، فهو صورة الأخ الشرير والحاكم المغتصب والمفسد الذي
يعبث في الأرض ويخرج على العرف والعادة ، وهذه هي صورة الإله
« ست » إله الظلام في عقيدة الشعب المصري على الأقل ، لأن عقائد الكهنة
كانت تخالف العقائد الشعبية في تفصيلاتها إن لم تخالفها أحيانا في الجملة
والتفصيل .

وقد مضى زمن كان فيه « ست » معدودا من آلهة الحق والاستقامة
وكان الإله الموسوم بالشر هو « ايب » الذي كانوا يرسمونه في صورة
حية ملتوية تحمل في كل طية من جسدها مدينة ماضية ، وتكن للشمس
بعد المغيب فلا يزال إله الشمس « زع » في حرب معها ومع شياطينها
السوداء والحمراء إلى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود إلى الشروق ، وقد
خصص الجزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتال بين الإلهين
إله الشمس وإله الليل ، أو إله النور وإله الظلام .

وربما كانت القضية كلها في أوائلها المنسية قضية النزاع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، وبقي لكل منهما حزب يعظمه ويتنصر له حتى تغلب الحزب الظافر كل الغلبة فتضاءل أنصار الفريق المغلوب وشاعت عنه أنباء الشر والتهمة ، وانتهى بتمثيله في صورة « أبيب » إله الظلام وتمثيل أخيه في صورة « رع » إله النور .

ولا يبعد أن يكون في الأمر نكحانة زوجية أو شبهة من قبيلها ، لأن أسطورة أوزيريس تروى أن الإله « رع » فاجأ الملكة « توت » زوجته وهي في عناق « سب » فلعنهما ولعن ذريتهما وأقسم ألا تلدن في يوم من أيام السنة ، فلهجأت إلى الساحر الأكبر « توت » الذي كان مشهورا بعلم السماء وتسخير الأرواح العلوية والسفلية فاخترع أيام السيء الخمسة لتضاف إلى السنة ، واستطاعت توت أن تلد ولديها التوأمين أوزيريس وست في اليوم الثالث من هذه الأيام ، وهي غير محسوبة من أيام السنة التي يطلقها « رع » بعلمه كلما عاد من الظلام ، فخرج الولدان وفي إحداها — أو كليهما — طبيعة الظلمة أو طبيعة النور المختلس بغير علم من إله النور .

أما الرواية التي استتقرت عليها قصة أوزيريس وست فهي أن الأخوين تنافسا فخدع « ست » أخاه وصنع له صندوقا أغراه بالنزول فيه ليقبضه على جسده ، ثم قتله ودفنه وألقى أشلاءه في النيل ، فجمعتها ايزيس — زوجة أوزيريس — بمعونة الساحر توت ، وبوأتها عرش المغرب فهو من ثم رمز للشمس في حالة الغروب .

وهناك رواية أخرى لعلها هي الأرجح والأقدم في التاريخ ، وخلاصتها أن « ست » لم يقتل أوزيريس ولكنه نازع ابنه « حوريس » فتغلب عليه هذا ونخصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك في حياته وبعد حياته ، ولم يكن للإله المغلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب في مكان « كوم أمبو » اليوم حيث كان معبد التمساح .

ونما يرجع أن القضية في أوائلها المنسية كانت قضية نزاع على الملك

إن اسم « ست » محى من الهياكل بعد زمن ، وأن أتباعه لازوا بالجنوب حيث يلوذ كل حاكم منهزم فى عاصمة المملكة الشمالية ، وأن ملوك الرعاة أعادوا لـ « ست » كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القائم ، فبنوا له هيكلًا فى مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك .

وقد استعيرت صفات « ست » من صفات أوزيريس على التناقض والتقابل بين الطرفين ، فكان من صفات أوزيريس « أنه ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الأرباب والناس وإله الآلهة وملك الملوك ، وسيد العالم الذى لا يفنى سلطانه » .

أما صفات « ست » فهى نقيض الخلود والسيادة على الأرباب والناس ، فلا سيادة له على غير الأرواح الخبيثة والأحياء الدنيا ، ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لا يراد به تمثيل حيوان معين ولكنه يمثل الحيوانية فى صورتها المبهمة ، ويجعلون له أذنين منتفضتين كناية عن الإسراع إلى استطلاع الشر ، وذنبًا شائلا كناية عن الحران والأشر ، ويعودون عليه باللائمة كلما أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مغتصب ، لأنهم شخصوا فيه عوامل التمرد والانتقاض فربما كان هذا من أسباب حظوته عند ملوك الرعاة فاعتبروه عونًا لهم وخصمًا للسلطان الزائل الذى أغاروا عليه ، وأحبوا أن يتقربوا إلى عبادته فى الجنوب تمهيدًا لضم الأقاليم جميعًا فى مصر العليا إلى دولتهم التى استقرت بمصر السفلى زمنًا وتوقفت عندها جهودهم قبل إجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال .

ومن أصالة الصبغة الحكومية أو صبغة الحكم والتحكيم فى أقدم المأثورات المصرية أن الأساطير العريقة فى القدم تروى لنا من أخبار خصومه ست وأوزيريس أن « ست » اتهم أخاه بالجور عليه فوكلت الأرباب قضيتهما إلى أمينها الخاص الذى يعرف أسرارها ويحفظ حكمتها ويؤمن على قضاياها — وهو الإله توت — فتبين له صدق أوزيريس وكذب ست ، وخرج هذا مدينا بالذنب والشر من زمرة السماء ، فما برح كل مصرى فى الزمن القديم

يتقرب إلى إله الحكمة عسى أن يتولى الدفاع عنه بعد الموت وينصفه في قضيته كما أنصف أوزيريس من أخيه المفترى عليه .

وقد شغل « ست » وظيفة ضرورية في عهود الأزمات التي تنهزم فيها الدولة وتنضب الثروة ويختل نظام الحكم وتضطرب مرافق المعيشة . فقد كان « ست » يبوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تبعة كل آفة لا يستطيع دفعها ، ومن هذه الآفات ربيع السموم وعوارض الجفاف والقحط وأوبئة الأرض وسائر الأمراض التي كانت تنسب من قديم الزمن إلى الجان والعفاريت ، وقد كانت عليه التبعة أيضا في بقاء السحر الخبيث لأنه كان على علم واسع بفنونه ولم يكن في وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويبرئوا المرضى من آفاته بغير وسائله وأسراره ، ولهذا كثرت في الطب المصري القديم مقارنة الدواء بالتائم والرقى وكثرت عندهم التائم والتعاويد ومنها ما بقي إلى اليوم في صور الجعل والحشرات والأساور والقلائد التي لا تصنع للزينة ولكنها تقرر بالأدوية والعقاقير طلبا للشفاء ، ويقول الأطباء الذين كانوا يشتغلون بالطب والسحر أن الدواء هو الذي يشفى ويرى من المرض ولكن التائم والتعاويد هي التي تمنع « العكوس » من فعل أرواح الشر وأطياف الظلام .

وقد كان الفراعنة أنفسهم يلجأون إلى السحر لمغالبة الأرواح الخفية ، فاستعان رمسيس الثاني بأصحاب التائم والتعاويد على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منه بالطب ولا تعظيما منه لقدر السحر ولكنه فعل إيمانا بضرورة اختيار الترياق من جنس المرض ، ولكل شيء آفة من جنسه كما قيل من قبل ويقال في كل زمان .

ولدينا من بقايا قصص السحرة نخبة لم يتخيرها جامعو الآثار ولكنها اجتمعت لهم من حيثما اتفق بين الانقراض والمحظورات ، وكلها تروى أعمال السحرة في مجازاة الأشرار . كقصص الساحر « أبانير » أي فالتق الصمخر الذي استخدم سحره في الاقتصاص من عشيق زوجته فضننح على يديه .

تمساحا من الشمع أرسله في البركة التي يغتسل فيها العشيق فالتهمه وذهب ليبلغ الملاك نبأ هذه العقوبة كي تحدث في ملكه بعلمه وإقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصا من المسيئين إليه وإلى الفضيلة فهو من قبيل « خفة اليد » التي يستخدمها الساحر لاستخراج النفائس المفقودة كما فعل الساحر « خنشا منخ » حين سقط الخاتم من أصبع إحدى الجوارى المصاحبات للملك « سنفرو » في زورقه فحسر الساحر الماء وكشف عن أرض البركة حيث استقر الزورق إلى جانب الخاتم المفقود ، ثم تلا الساحر عزائمه فتلاقى الماء من تحت الزورق ورفع رويدا رويدا حتى استوى على البركة كما كان .

* * *

يقول صاحب كتاب صناعات السحر في مصر القديمة :

« إن السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيلة والطهارة للساحر الطيب ، وفي اعتقادهم على الدوام إن الآلهة إنما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الإيمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طالب المعرفة » (١) .

ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الأسرار إلى أقسام ودرجات ، فمنها العلم الذي يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر وجنوده وقوامه الصلوات والرياضيات الروحية .

ومنها العلم الذي يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيه السحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار .

ومنها السحر الخبيث للأغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان الأبرار أن يشتغلوا به وإن وجب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقابه .

ويمكن أن يقال على الجملة أن الشر في العالم كله إنما كان في عرف

الحضارة المصرية « جريمة اجتماعية وطنية » غير مشروعة ولم يكن عنصرا أصيلا في تركيب الدنيا أو تركيب الإنسان ، وقد بلغ من تطور هذه العقيدة في تفكيرهم الديني أن اخناتون استغنى عن الجحيم وأنكر دعوى أوزيريس في السيطرة على عالم العقاب بعد الموت .

ولا تظن أن تاريخ « ست » قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى في علوم الآثار أو في علم المقابلة بين الأديان ، فإن الذى عرف منه إلى يومنا هذا يسوغ القول بكثير من الفروض والاحتمالات التى كانت تلوح للنظرة الأولى ضربا من الخيال أو اللعب بالجناس ، ولا نغنى بتسويغ القول بها أنها ثابتة أو أنها راجحة مقبولة على علاقتها ، ولكننا نغنى أنها فروض واحتمالات لا ترفض ولا يزال من يرفضها محتاجا إلى سند وثيق .

فال مؤرخ بلوتارك يذكر فى كتابه ايزيس وأوزيريس أن « ست » كان يلقب « بيبون » وأن هذا اللقب معناه العقبة المعترضة فى طريق يفضى إلى الخير لتتحول به إلى الشر ، ويقول فى الفصل الثامن والعشرين أن الأساطير تروى أن اليهود هم أبناء « ست » من أتان ، ويعلق المؤرخ « أوليفيه بير جارد » على ذلك فى كتابه عن الأرباب المصرية فيقول إن هذه الأسطورة أصل الخرافة التى شاعت فى تقديس اليهود فى هيكلهم لرأس حمار ^(١) . ويقول غيره بين الجلد والمزل أن شمشون حاربهم من أجل ذلك بفك حمار ، وأنهم لهذا يتبركون بالخلص الذى يأتى فى آخر الزمان على حمار ابن أتان .

وقد تكرر القول بأن كلمة « ست » و « ستان » أو الشيطان العبرية من أصل واحد ، ولا نزاع فى اقتباس اليونان والعبريين من المصريين فى تصوير « الشخصيات » العلوية والسفلية ، فليس من الأناة أن نجزم ببطلان التشابه فى اللفظ بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الملوك الرعاة للإله الفرعونى

(١) صفحة ٢٠٥ من كتاب الأرباب المصرية .

كما تقدم ، وليس من الأناة أن نجزم ببطلان التشابه بين مدلول اسم ست عند المصريين ومدلول اسم الشيطان Diabolos باليونانية ، وكلاهما يفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والإفساد ، وقدما شاعت نحلة ايزيس وأوزيريس وغيرهما من الآلهة المصرية بين بلاد اليونان في آسيا الصغرى وبين الأثيوبيين واليمنيين في الجنوب ، وقال ديدورس الصقلي أنه رأى في « نيسا » من بلاد العرب عمودا للإله أوزيريس وشيئا من قصته ملخصا على ذلك العمود .

وقد ختم الأستاذ بورجارد كتابه الذى أشرنا إليه آنفا عن الأرباب المصرية قائلا أن النحلة المصرية نقلها العبريون من مصر إلى الشام واليمن ، ونقلها الإغريق إلى اليونان ونقلها الفينيقي قدموس إلى اليونان وإلى بلاده . وإن أعظم العقول اليونانية كانت تهاجر إلى مصر لتدرس المعرفة المصرية في طيبة ومنف وعين شمس وسائس ، وعدد منهم ليكرغ وصولون وطاليس وفيثاغورس وافلاطون وايدوكس ، وعدد بعدهم أمما من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ، ولا شك في شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الأبرار وعالم الأشرار في الديانة المصرية القديمة ، فليس من الغريب أن تتخلف منها بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الأناة على الأقل أن ينتهى تاريخ « ست » حيث انتهى في هذا الموضوع وقد قيل أن العزى هى ايزيس وأن مناة هى منوت أو موت ، وأن النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض أناشيد أتون ، وأن أيوب عليه السلام كان يسكن إلى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التى تبنى لتخليد الموتى ، ويكافح الشيطان الذى يوسوس له ويغريه بالكفران والعصيان ، وأقل من هذه الملابس حقيق بالتريث عنده وترك الباب مفتوحا بعد لما تأتى به الكشوف وتسفر عنه المقارنات .

الحضارة الهندية

ترجع فئة من علماء المصريات أن الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرة من ديانة المصريين الأوائل ، ويرى برستيدوايوت سميث أن معظم هذه المقتبسات من كتاب الموتى ومن شعائر تقديس الملوك التي يستطيع التحقق من سبق الحضارة المصرية إليها .

ويرد ذكر مصر في كتب البورنا التي جمع فيها الهنود الأقدمون قصص الآلهة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آباؤهم الأولين .

ولكن طبيعة الديانة الهندية تقرر الحدود التي تبلغها تلك المقتبسات ولا يمكن أن تذهب بعيدا إلى ما وراءها ، فهي لا تكون بطبيعة تلك الديانة إلا من قبيل الشعائر والبراسم ولا يتأتى أن تتخطاها إلى أصول الديانة في جوهرها ، إذ كانت الديانتان الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضين أو الطرفين المتقابلين ، ولو أراد أحد أن يضع ديانتين يتوحد فيهما التقابل في العقائد الأساسية التي تدور عليها كل ملة لما استطاع أن يبلغ في هذا التقابل ما بلغه أهل مصر وأهل الهند في العهد المتتابعة على غير قصد بطبيعة الحال .

والعقائد الأساسية التي تدور عليها كل ملة تتناول وجود الإنسان ونظام المجتمع ووجود العالم كله أو الوجود على إطلاقه ، وفي هذه المسائل الثلاث تقف الديانتان العريقتان موقف التقابل من طرف إلى طرف ، كأنهما عامدتان إلى تصوير سعة الآفاق التي تحيط بالعقائد في ضمائر بني الإنسان .

.. فالديانة المصرية تصون جسد الإنسان وتستبقيه إلى الحياة الأبدية ، والديانة الهندية تنكر الجسد وتعلم أتباعها أن الروح تنسخ جسدًا مرة بعد مرة ولا تنال الخلاص إلا إذا فنى الجسد كل الفناء .

والديانة المصرية تعتبر دوام الأسرة آية من آيات النعمة الإلهية ولا تعرف دعاء إلى خالق الكون أحب إلى الداعين من بقاء تراث الآباء والأجداد واتصال العقب إلى آخر الزمان ، وعلى نقيض ذلك ديانة الهند التى تعلق النجاة بالإفلات من دولاب الحياة والموت والرجوع إلى « الرافانا » من طريق « الموكشا » أى اجتناب العلاقة الجنسية ولو فى حالة الزواج .

وتؤمن الديانة المصرية القديمة بأن العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالا لعالم الخلود ، وعلى نقيض ذلك ديانة أهل الهند التى تحسبه شرا محضا وباطلا موهوما ومنبعا لجميع الشرور التى تعترض عالم الحقيقة وتشعل الروح بالأعراض والقشور .

ويكفى هذا الاختلاف بين الديانتين لامتناع التشابه بينهما على الخصوص فى مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هذه القوة بنواميس الكون الخالدة سواء منها ما يتمثل فى صورة « الذات » الإلهية أو ما يتمثل فى الناموس الأعظم أو « الكارما » الذى ليس له ذات .

على أن الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الأديان أشد الحيرة فى أمر « الشخصية » التى تقابل شخصية الشيطان أو قوة الشر العالمية عند أصحاب الديانات الأخرى ، وأسباب هذه الحيرة متعددة لا يصادفها العلماء بهذه الكثرة وبهذه الصعوبة فى غير الديانة البرهمية وما تفرع عليها .

من هذه الأسباب أن الهنود الأقدمين قد تعاقبوا على البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تتناقض بين قبيل وقبيل من السابقين واللاحقين ، وربما تعتمد القادرون أن يهدموا عقائد من تقدمهم فلا ينجحوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التضارب والاختلاط ، ومن ذلك فى هذا الباب عقيدتهم فى العفاريت الخبيثة أو العابثة التى يسمونها بالـ « راكشا » وينسبون إليها أعمالا كأعمال الشياطين فى الديانات الأخرى ، فان الباحثين فى اشتقاق الكلمة يقولون تارة أنها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة أخرى إنها الاسم الذى كان يطلق على الهمج الأولين الذين سكنوا الهند قبل إغارة الآريين .

عليها وكانت لهم حراسة على الطرق وعلى ينابيع الماء ، وقد رسخ في الأذهان من أحاديث القتال بينهم وبين الآريين أنهم أعداء البشر وأنهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم في كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب الغرة منه ، ثم تطاول الزمن فانقسموا في أساطير العامة إلى أقسام ثلاثة : أحدهما يشبه أرواح « الياكشا » البريئة التي تهيم على وجهها ولا تؤذى أحدا إلا أن يتعرض لها ، والثاني يشبه العصاة المتمردين من الجن ويعادى الإنسان ألد العداة ، والقسم الأخير يلوذ بالمقابر والصوامع ويحالف الموت والحراب ، ويقول من يزعمون رؤيتهم أنهم مشوهون ، بعضهم ذو رأسين وبعضهم ذو ثلاث أرجل ، ومنهم من له عين واحدة في رأسه ومنهم من له عدة أعين ، وكلهم على خلاف البشر في التركيب .

ولا ينسب إلى هؤلاء « الراكشا » عمل من أعمال الإغراء والإغواء ولكنهم قد يختصبون النساء عنوة ويتلصصون في الطرق المقفرة ويستبيحون الأذى للكيد أو للعبث والدعابة . ورئيس هؤلاء « الراكشا » المسمى « رفانا » هو الذي اختطف الحسنة « سيتا » زوجة البطل « رام » كما جاء في ملاحم « الراجيفيدا » ثم حملها إلى جزيرة سرنديب ولم يستطع زوجها أن يهتدى إليها ويخرجها من أسرها إلا بمعونة القرد هنومان .

فالشياطين في صورة « الراكشا » هم « الشر » الذي أبغضه الآريون وصوروه لأبنائهم في الصورة التي تنفرهم منه وتحذرهم من كيدته ، وأنهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله أعداؤه ويدفعون به إلى أقاصى الأرض وزوايا المدن ويستثيرونه أحيانا من فرط الظلم فيثور ويهملونه أحيانا فيهم على وجهه عاجزا عن الأذى قانعا بالسلامة أو محفزا للانتقام .

* * *

وإلى جانب التابع في الديانات والأقوام المغيرة على البلاد يقوم السبب الشامل في جميع العهود ولا سيما العهود الأخيرة التي تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد فيها الكهان المفسرون والمفكرون على أعقاب الكهان المتنسكين

أو الدهاة المتحكمين ، ففي هذه العهود الأخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وغلبة الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن في « الوجود » الشرين محل خاص لقوة تفسده وتدحض فيه الحق أو تنقض فيه الخير ، وما فيه من حق ولا خير إلا أن يفارقه الصالحون الناجون بأرواحهم إلى عالم الفناء .

وقد اشتمل الثالوث الأبدى في الديانة البرهمية على ثلاثة أرباب هم : « براهما » الإله في صورة الخالق و « فشنو » الإله في صورة الحافظ و « شيفا » الإله في صورة المادم ، فكان المادم - من ثم - عملا ربانيا يقوم به الإله في صورة من صوره وينصف به الحق من هذا الوجود الباطل الذي ينبغي أن يزول بمهد سبيل الطهارة والصفاء ، وجهاته المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة إليه في نظام الوجود .

ومن الصعوبات التي تحير علماء المقارنة بين الأديان أن التناسخ أو تعدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشعبة في الديانة البرهمية وفروعها ، فليست هي مقصورة على الإنسان في أدوار حياته المتعاقبة ولا على الحيوان في أشكاله المتنوعة بل تعم الوجود كله من الأرباب العليا صور متعددة تقترن النعمة ببعضها وتقترن النعمة بغيرها ، فيدين أناس للإله « شيفا » على أنه مصدر الخير وقائد الأرواح في طريق الفناء إلى حظيرة « الوجود » الأسنى ، ويرهبه أناس آخرون على أنه سلطان الغضب والنكاية فلا رحمة عنده ولا موئل من قصاصه وتقلب أطواره .

وليس تعدد الصور كل ما يواجه العلماء من أسباب الحيرة وتناقض الصفات في الإله الواحد ، بل هناك سبب آخر يضاعف هذا التعدد ولا يمنع « الشخصية » الربانية الواحدة أن تتولى أعمال العدد العديد من الشخصيات الربانية في معظم الديانات ، وهذا السبب هو إضافة الـ « شاكتي » أي قرينة الإله الأنثوية إلى وظيفته في المسائل الدنيوية .

فكل إله له « شاكتي » بمعنى القرينة أو الزوجة . هي التي تنوب

عنه في « شتون الدار » أو في الشتون التي يتركها ولا يتفرغ لها إيثارا للعمل في الآفاق العلوية .

وتعود الأقاويل إلى « الشاكتي » فتجعل لها طبيعتين . طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة . وطبيعة سوداء منها العسف والقسوة ، وقد تسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح « الشاكتي » الواحدة ذات أربعة أسماء غير إسمها الأصلي . وعلى هذا المثال تسمى قرينة سيفا إله الشر باسمها الأصلي « ماسواري » ثم تسمى باسم « أوما » واسم « جوري » حين ترجى منها الرحمة والمودة وتسمى باسم « جوري » واسم « كال » حين تخشى منها النقمة وسوء النية ، واسم « كان » الأخير هو الاسم الذي يعرفها به عبادها الذين اشتهروا باسم الخناقين واتخذوا شعارهم في الترابين البشرية قتل الضحايا بغير إراقة الدماء .

وقد عاشت جماعة الخناقين زهاء ستة قرون تتعبد للإله « كالي » بمنتهى ضحاياها والتقرب بأسلابهم على محاربيها ، وتمخيل هذه الآلهة على مثال امرأة عابثة تحيط بخصرها بنطاق من الجماجم والسكاكين وتحمل كل من يطيعها ويتقرب إليها بتلك القرابين ، وعفيدتهم في ذلك أن الإله « فشنو » يحافظ على الأحياء فيتمكثرون عددهم ويعجز الإله « شيفا » عن ملاحقته في مهمة الإبادة والافناء ، فيستعين « بالشاكتي » كالي على هذه المهمة ويتزلف إليها عبادها بالمعونة على القتل مع اجتناب سفك الدماء لأن الدم الذي يراق على الأرض تتولد منه الحياة .

وجماعة الخناقين هذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرون عبادتها ويسفهاون أحلامها ويحرمون قتل الحيوان ، بل قتل الهوام والحشرات فضلا عن الإنسان ولكنهم لا ينكرون ربوبية « كالي » ولا يتركون عبادتها على النحو الذي يرتضونه ويحسبون أنه أقرب إلى رضاها ، ومن ذاك أنهم يترهبون أو يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة إلى قتل الأبرياء .

وتلك الأسباب في جملتها هي التي تحير علماء الأديان كلما أرادوا

أن يحصروا الشر في « شخصية شيطانية » تنعزل بقوتها عن القوى الإلهية في أقانيهها المتعددة .

ولكنهم يشوبون في النهاية إلى عقيدة واحدة مشتركة بين النحل والمذاهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر في صورته الكونية الشاملة ، وهذه العقيدة هي الإيمان بأن العالم المحسوس شر وباطل وأن كل ما يربط الإنسان به شر وباطل مثله ، وتشتمل روابط الإنسان بالعالم المحسوس على كل طمع وكل شهوة وكل أمل يفتنه بلذته من لذاته أو قنينة من مقتنياته ، وتتجمع هذه الفتن قاطبة في « المرأة » لأنها سبيل الروابط الدنيوية التي تقيد الحى بالدورات الأبدية في دوLAB الولادة والموت ، وأل لعنة الموت لتلاحق كل من يولد ويلد حتى ينقطع عن السسل ويشوب إلى « الرقانا » بغير علاقة ترده إلى هذا العالم المحسوس ، ومن ثم يفضى به المطاف في الآباء المتطاولة إلى غاية كل مطاف من الفناء والسلام .

ويلاحظ أنهم يحيلون الأمر على « الأنوثة » كلما عرضوا لعمل من أعمال الأرباب ينزهون عنه الآلهة ويلحقونه بالشواغل الدنيوية الأرضية .

ويلاحظ كذلك أنهم يقولون عن العالم المحسوس كله إنه « مايا » أو وهم وضلالة ، وأنهم يصورون هذا « المايا » في صورة أنثى شديدة الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الأنثى التي تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة ، فيحسون اللذة نعمة تبتغي وهي شقاء أبدى لا يؤدي إلى غير الشقاء .

وليس في الديانة الهندية وفروعها المتشعبة شخصية واحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذي يسمونه « المارا » من الموت ويقولون أنه يسيطر على السماء السادسة وما دونها من العوالم الأرضية ، كأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا مشخصة معروفة باسم واحد بدلا من تعميم القول على الفتن التي تساور النفس ولا تتمثل لها ذات في الحس أو الخيال .

وهذا « المارا » هو الذي قيل في قصة « بوذا » انه وسوس له وألح .

فى وسواسه ليشغله عن النسك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك
الزهد والاعتدال .

فالشر الكونى هو الشر النفسى الذى يخامر الضمير ويزين له ترك الحكمة
والاقبال على الأوهام والأباطيل .

وديانة الهند على هذا لم تبتدع شيطانا أو أرواحا شيطانية غير الأرواح
التي يسمونها بالراكشا ويردونها إلى الشراذم المشردة من أبناء البلاد الأصلاء
الذين صمدوا للآريين زمنا ثم استكانوا على مضض وتربص أو على هوان
واستسلام .

أما « الشيطان الكونى » فهو مرادف للفتنة وكل ما يغرى النفس بمطامع
الحياة .

ويصعب على المتتبع للأعمال التي تنسب إلى بعض الآلهة والأعمال
التي تنسب إلى الشياطين الهادمة أو المعادية للجنس البشرى أن يفرق بينهما
بغير الرجوع إلى النيات ، فقد تتشابه في الهدم ولا تفرن عن القصد والنية ،
فما كان هدمًا للقضاء على مطامع الدنيا وحبائلها فهو خير ، وما كان هذا
هدمًا للتنافس على هذه المطامع والوقوع في هذه الحبائل فهو من عمل
الشيطان كيفما كان الاسم الذى يطلق عليه .

بين النهرين

ظفرت بلاد « بين النهرين » بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الأديان لم يظفر بها قطر آخر . لأنها ميدان للبحث لا يضارعه ميدان آخر في اتساعه وامتداد تاريخه وتعدد أقوامه وتيسر البحث فيه . لنوعين من المقارنة يندر جدا أن يتيسر في رقعة أخرى من الكرة الأرضية ، وهما مقارنة الأديان ومقارنة الأجناس في وقت واحد ، إذ كان وادي الدجلة والفرات ، وطننا قديما أقام فيه الآريون والساميون والطورانيون ، وبسواء صبح أن السومريين الذين أقاموا فيه زمنا قد وفدوا إليه من الصين أو لم يصبح هذا القول الغالب فقد صبح أن « زرادشت » نبي المجوسية عاش بين الطورانيين والمغول حقيقة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبادة الثوية المجوسية بعض التوفيق .

وهذا التعدد في السلالة يصاحبه تعدد آخر في الأحوال الاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمع الزراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتنقلة ، وبين أناس يبتون الهياكل وأناس لا يعرفون البناء ، أو أناس يعبدون النار والكواكب وأناس يلصقون عبادتهم بالأرض ومعالمها وعناصر الطبيعة التي تهيمن على أرواقهم ومساعيمهم .

وتتضاعف العناية بالديانات التي نشأت بين النهرين لسبب غير هذه الأسباب يهتم به الأوروبيون وأتباع الأديان الكتابية على العموم ، لأن مراجع الأديان الكتابية تبتدىء في بلاد النهرين منذ عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابي إلى عهد السبي واختلاط بني إسرائيل بالبابليين والميديين واقتباسهم ما اقتبسوه منهم في العرف الديني والشعائر التي لها اتصال بمراسم العبادة ، ثم تأتي عبادة (متر) وعبادة « الماتوية » . وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة في دولة الرومان من شواطئ إسبانيا إلى الجزر البريطانية .

فالعقائد الدينية التي نشأت قديما حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث و مرجع المقارنة والاستشهاد في جميع الديانات الكبرى ، وأولها المسيحية التي يدين بها الأوروبيون وهم أول من درس المقارنة بين الديانات على النهج الحديث .

ونحن في هذا الفصل لا نقصر الكلام على البلاد التي تحصرها الأوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولكننا نمضي معها إلى حدود الحضارة التي تأثرت بها أو أثرت فيها من وراء النهرين شرقا إلى أرض فارس ومن وراءها غربا وجنوبا إلى الأقطار العربية أو الأقطار السامية التي كان لها اتصال بالدولة القائمة في بابل وأشور ، ولا حاجة بنا - في هذا الفصل - إلى استقصاء العقائد والشعائر في هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وإنما ننظر إلى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على « الشيطان » أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحضارة النهرين صلة وثيقة بجميع الأمم التي دخلت في عداد المؤمنين بالأديان الكتابية ، فلبست في حضارات العالم حضارة أحق بالدراسة في هذا الصدد من الحضارتين البابلية والفارسية ، وكلتاهما تدخل في العنوان الشامل الذي نطلقه على أقطار « ما بين النهرين » بشيء من التجوز من الوجهة الجغرافية وبغير تجوز من الوجهة الثقافية .

فنحن نرجع إلى « بابل » لفهم التطور في معنى « الخطيئة » مميزا من معنى الذنب أو العيب أو الرذيلة أو الجريمة .

ونحن نرجع إلى « فارس » لفهم التطور في مذهب « الثنوية » أو النزاع بين سلطان الخير وسلطان الشر في الأكوان العليا والسفلى ، ومنها الكرة الأرضية .

* * *

إذا كنا نعرف للحضارة المصرية صبغة نلتبسها في جميع مظاهرها وهي صبغة الحكم والشرعية ونظام الدولة . فالصبغة التي تغلب على حضارة بابل - على هذا النحو - هي صبغة التنجيم والأزياج الفلكية ، وسنرى

أن علماء المقارنة بين الأديان لم يلتفتوا إلى هذه الناحية في علاقتها بفهم المقصود من معنى « الخطيئة » مع أنها — على ما نرى — لا تفهم حق فهمها ما لم تبتدىء من هذه البداية .

لقد عرف البابليون رصد الكواكب من أقدم الأزمنة ، وعلقوا مصائر الناس وأقدرهم بسعودها ونحوسها ، فلا يسعد أحدهم بنعمة السماء ولا يشقى بغضبها إلا وهو في الحالتين عرضة للقضاء المسطور في أزياج النجوم .

وقد نشأ عندهم علم الفلك بحسابه وتقديره مصاحبا لعلم التنجيم بخرافاته وأوهامه ، ولم تكن كل هذه الخرافات والأوهام خداعا من الكهان والسحرة ، بل كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمزجونها بالقصص والأغاز التي يدركها العامة ولا يدركون ما وراءها .

وما من قصة بلغتنا من أرض بابل في تاريخها القديم إلا وهي قصة من قصص المناظرة بين الأرض والنجوم في شكل من الأشكال التي يفتن فيها الحس والخيال .

فربة الأرض « تيامات » تتحدى السماء فتستعين بالطوافين على حكم أقطارها وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها ، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به إلى مناجزة الأرباب في سماواتها ، وكل ثورة من ثورات الأساطير المزعومة فانما هي في مدلولها خروج من الأرض على إرادة السماء لا تلبث السماء أن تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان .

فلم يكن للبابلي من هم في سره وعلايته إلا أن يستطلع إرادة النجوم ويخرج بالإذعان لها وموافقة هواها من عداد « المنحوسين » إلى عداد السعداء .

ويسأل العارفين بالتنجيم : ماذا تريد النجوم ؟ وماذا كتب لي في كتابها المرقوم ؟ فما كان رضى للنجوم فهو الفلاح والنجاح ، وما لم يكن رضى لها فهو الحيبة والضياع .

لم يكن الأمر هنا أمر الحسن والقبيح أو أمر الصلاح والفساد أو أمر الاستقامة والإجرام ، كلا . . . وإنما هو أمر الرضى من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب أو أمر الغضب الذى يحقق بمن يخالف قضاء الكواكب فى مجراه .

والفارق بين الأمرين إنما هو الفارق بين الموفق السعيد والخائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يقترف حماقة الخلاف بغير رجاء .

* * *

وينبغى أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذى يميزه من معنى الذنب ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فانه يباينها فى طبيعته ولا يتأنى للإنسان أن يعرف موضع التحريم منه إلا إذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب أو العيوب أو الرذائل أو الجرائم بهذه الصفة الخاصة بين المحرمات . لأن الإنسان قد يعرفها ببداهته أو بتعليم المجتمع الذى يعيش فيه .

فالذنب إساءة قد يجنيها الإنسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة إنصاف أو إجحاف فى المعاملة .

والعيب نقص يعتري الإنسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور .

والرذيلة إسفاف يتورع عنه صاحب الفضيلة الذى يروض نفسه على الكمال ، فهي مسألة كرامة وابتذال .

والجريمة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على إنكاره ومجازاة فاعله ، فهي مسألة قانون وقضاء .

أما الخلاف الذى يسمى « خطيئة » فيكفى فيه أن يعمل لإنسان ما لم يردده الإله ولو لم يكن من ورائه ضرر يعلمه ، لأن الخلاف قلة إيمان بالمشيئة الإلهية : فهو مسألة أدب أو سوء أدب مع الله .

ولفهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه في علم السحر والكهانة تقربه من الأذهان على نحو سائق في كل تعليم . فليس من أدب التلميذ الذي يتلقى خفايا السحر والتنجيم أن يجترأ على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم إلى حين ، وعليه أن يغمض عنه عينيه ثقة منه بما يختاره له معلمه من درجات المعرفة على حسب مواقيتها المقدورة ، فان خالفه يوماً متعجلاً أو مسترياً فهذا الخلاف سوء أدب أو جهل يخرج من عداد الصالحين لعلم الأسرار .

وهذا رسم الخطيئة بين سائر المحرمات ! رسمها أنها تحريم يناظر بمشيئة الله ولا يطلب من العباد أن يتجنبوه لسبب غير هذه المشيئة ، وإن خفيت عليهم وجوه الحكمة فيها .

وقد أورد برتشار (١) في كتابه عن شعائر الشرق الأدنى الغابرة وعلاقتها بالعهد القديم ، نماذج من الصلوات البابلية المحفوظة يعلن أصحابها التوبة ويطلبون الغفران لأنهم أكلوا طعاماً محرماً ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا اجترأ على مغبة العقاب .

وقد نريد المسألة توضيحاً حين نقول إن الإله وحده هو الذي يحق له أن يحرم شيئاً ولا يذكر سبب تحريمه ، لأنه هو وحده الذي يعلم مصلحة الخلق جميعاً فيما يبيحه لهم وينهاهم عنه ، فأما غير الإله فالمحرمات التي ينهى عنها لغير سبب لا تدين أحداً بالخطيئة وكل ما يخشاه من اتيانها أن يتعرض للغضب أو للعقاب .

فلا جرم تتقدم البلاد البابلية غيرها من البلاد لأنها تقدمتها في كشف الطوائع ورصد الكواكب وتفسير ما تنبئ عنه من سعود أو نحوس ، وتستحيل السعود والنحوس إلى مباحات ومحظورات ومحملات ومحرمات حين تستحيل الكواكب أرباباً علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير .

أما الحصاة التي ساهمت بها عقيدة فارس في تاريخ الأديان ، وتاريخ

قوة الشر على التخصيص ، فهي « الثنوية » أو تنازع النور والظلام على سيادة الوجود .

ويظهر أن الثنوية هذه عريقة الأصل عميقة الجذور في البقاع الفارسية وما حولها ، فانها بعد تهذيب الأديان الكتابية لها لم تنزل متغلخلة في أفكار بعض الكتابيين ممن ينتمون إلى اليهودية أو الإسلام ويقيمون في أطراف البلاد التي كانت تحيط بها حضارة ما بين النهرين منذ أربعين قرناً أو تزيد ، وقد روى الدكتور يوسف وولف صاحب الرحلة إلى بخارى (من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٤٥) أن شيخاً يهودياً يدعى ناثان زاره ومعه درويش من كشغار فسأله الدرويش ممتحناً : من خالق النار والماء ؟ . قال الدكتور وولف : فلما أجبت أنه هو الله ، صاح بي قائلاً : صه ! لا شيء من ذلك ، لأن النار والماء عنصرا مهلكا ولا ينبغي لله أن يخلق المهلكات ، وعليك أن تعلم أن الكون يحكمه إلهان : أحدهما إله الملأ الأعلى وهو رب الخير الذي خلق نورا لا يحرق وخلق الورد واللبيل ، وقد تصدى له إله العالم الأسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حرباً لا تزال حتى اليوم حامية الأوار ، فمن عمل خيراً من الناس فهم خدام الإله الأعلى ، ومن عمل شراً منهم فهم خدام الإله الأسفل ، وسوف تحدث الحرب كرة أخرى فيصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة تخلق معه ألوف الألوف من جنده وتطير بينها الحيات والثعابين ، فيدور القتال سبباً لا حتى ينهزم الإله الأسفل ويلقى عصا الطاعة لإله السماء .

وأغرب من بقاء هذه العقيدة في موطن الثنوية أنها بقيت بين الأوربيين إلى القرن السابع عشر وكانت لها نحل ومعابد ومن بلاد البلقان إلى العواصم الفرنسية في الشمال والجنوب ، وإذا صحت بعض الأخبار - مما نشير إليه في الفصول التالية - فقد بقيت شعبة منها إلى القرن العشرين تتستر باسم الماسونية وتستقبل المصلين في باريس حيث يقربون القرابين إلى الشيطان ويكررون التلاوات التي كانت ترتل في معابد النحل الشيطانية قبل ثلاثة

قرون وتدور خلاصتها على الإيمان بسيادة الشيطان على الدنيا واعتبار المادة خلقة شيطانية يتنزه عنها إله السماء ولا تسرى عليها أوامره ونواهيه .

وقد تطور الإيمان بالثنوية أو هو قد ترقى مع الزمن في القرون الأولى كأنه جذر عريق لا يقتلع مرة واحدة ولا يزال قابلاً للنمو في منبت بعد منبت من العبادات الحالية .

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى النهار والليل ، ثم ترقى المؤمنون بهذه الثنوية فأمنوا بإله واحد يسمونه « زروان » وقالوا بولدين له كانا في رخم الخيب فوعد أكبرهما بالسيادة على الدنيا فاحتال إله الظلام منهما على الخروج أولاً لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من أبيه إنجازاً لوعده ، ولم يستطع الأب إلا أن يعد ابنه إله النور بالغلبة بعد حين يقدرونه بتسعة آلاف من السنين الكونية !

هنا الإلهان هما « أورمزد » و « أهرمان » أو الروح الطيب والروح الخبيث .

ومن عقائد بعض الثنوية أن الخلائق النافعة من صنع إله النور وأن الخلائق الصارة أو التي لا نفع فيها من صنع إله الظلام .

وبعض طوائف الثنوية يعتقدون أن الجسد كله شر ولكن الأرواح العلوية أرادت أن تحارب جنود الظلام فأنبأها الإله الأعظم أنها لا تقوى على حربها بغير أجساد كأجسادها ، فإن شاءت بقيت على صفائها ، وإن شاءت ليست أجساداً من المادة فكافحتها بسلاحها ، وهذه هي الأرواح العلوية التي بقي الأكثرون منهم على صفائهم ورائت الغواية الجسدية على بعضهم فغلبتهم الفتن والشهوات .

ويعتقد فريق من الثنوية أن آدم من خلقة الشيطان ولكن الأرواح العلوية تعالج أن تصاحبه وتقوم أوده وتستخلصه من وهدده الطين بقبس

من النور تدهسه له في وجدانه فيأنف الحياة الأرضية ويتطلع ببصيرته إلى السماء .

وجاءت المانوية فانتشرت في بقاع الدولة الرومانية بعد ظهور المسيحية- ونافستها أشد منافسة في آسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا وأوربة ، فامتألت معاهد الدينين بالكلام عن الشيطان واستصوب أناس من آباء الكنيسة أن ينتزعوا شعائر عباد النور فجعلوا يوم الأحد يوم الأسبوع المختار لأنه كان مخصصاً لعبادة الشمس^(١) وجعلوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميسلاد لأنه كان يوماً ينصرف إليه المسيحيون إلى سهرات الوثنيين لاعتقاد هؤلاء أنه اليوم الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو هزيمة لإله الظلمة ونصر لإله النور .

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون إلى أصول العقيدة الثنوية فحولوا أسطورة زروان الذي ولد له « أورمزد » إلى أسطورة كرونوس الذي ولد له زيوس رب الأرباب وسيد الملأ الأعلى ، فبحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بين النهرين ، لأنه سابقة لا تنقطع عما تلاها من أطوار الإيمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التي نزهتها الأديان الكتابية بعد ذلك في عقيدة الوحدانية ، ودونها القوة الكونية التي تمتل فيها الشر مخلوقاً متمرداً على الله .

* * *

وفي الوعي الديني عوامل ذات بال لا تحسب من الفرائض والشعائر ولكنها تحسب من الخواطر التي تخامر النفس وتعمل عملها في تقويم الأخلاق المصطبغة بصبغة الإيمان .

من هذه الخواطر التي تستكر على اللاهوت القديم خاطران يتخللان كتب الديانة « الزردشتية » من أقدم عصورها ، أولها أن الشر « شك » .

(١) ومن هنا بق اسم Sunday بالانجليزية .

وأنه نبت في الكون لأول مرة حين تساءل زروان بينه وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير ؟ والخاطر الآخر أن الشر كذب كما جاء في قصة « يامة » التي تضمنت أقدم الخواطر عن السقوط والخلاص ، فقد دعاه اورمزد لحراسة الحق فاستغفاه لعظم الأمانة واشفاقه من العجز عنها ، فأرسله إلى الأرض وخوله ما سألته من الغلبة على الموت ، فامتألت الأرض بالأحياء التي لا تفنى وامتألت نفس « يامة » بالخيلاء فسولت له أن يناظر الإله بهذه العصمة وأن يكاذب نفسه بخيلائه ، فلهق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من جناية « يامة » على نفسه وعلى زمرة تسالت إلى الوجود من مدخل الباطل وهو أصل جميع الشرور .

هذان الخاطران يتخللان الكتب الزردشتية من أقدم العصور ، ولم يدخلها العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل بل دخلها من طريق الأشكال والرموز التي يلم بها الحس قبل التفكير فيها .

اليونان

يحتاج النقاد التاريخيون إلى تحرير موازينهم جميعاً قبل الاطمئنان إلى رأى صحيح فى أى شأن من الشئون الأساسية التى قامت عليها حضارة اليونان . وذلك بأنه سىرى بين يديه تاريخين غير متفقين فى بعض الأصول . وفى كثير من التفصيلات : تاريخ الأمة اليونانية الحقيقية وتاريخ الأمة اليونانية التى جعلها الأوربيون المحدثون عنواناً للفضائل الغربية فى مسائل العلم والفن والسياسة والأخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام التترقيين فيما قدروه لهم من نصيب فى هذه المطالب وهذه المزاي .

وبلغ من رغبة الأوربيين فى ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقاً منهم تنكر للمسيحية لأنها ثمرة شرقية ، وفريقاً منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الأول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الأناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الإنجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان .

وقد عمد الغرب إلى هذا الاستغلال التاريخى لثراث اليونان لأنه احتاج إليه لتدعيم السيادة والرجحان على أمم الشرق فى عصر الاستعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان وسيلة إلى تحقير الشرقيين واستباحة السيطرة عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التى تخول المتقدمين من بنى آدم أمانة الإشراف على تعليم المتأخرين .

إن أمه اليونان الحقيقية غير هذه الأمة « المصنوعة » التى احتال بها الغربيون فى عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العصبية ومرضاة

الغرور الذى يساور « الغربى » فى مقام المفاخرة وإن لم يكن من خدام الاستعمار .

وليس من المنصفين من يبخس لهذه الأمة الحقيقية فضلا فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فما لا نزاع فيه أن نصيبها فى هذه الثقافة لا يعلوه نصيب ولا حاجة بها معه إلى انتحال الدعوى واغتصاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أخرجت للعالم سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ثلاثة أجيال متعاقبة مع من أخرجتهم من الحكماء السابقين واللاحقين ، وأنها تعد من شعرائها أمثال هوميروس ويوربيدس واسكايلاس وسفوكليس ورستوفان ، ومن علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الأول الذى تلاحق على مدى ثلاثة قرون فى عصر لم يكن فيه أحد يضارعهم أو يقاربهم فى هذه العلوم ، ومعهم رهط من توابغ الفن وأساطين السياسة والحكم يوازنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون أحيانا على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة .

حسب الأمة اليونانية هذا الفخار الذى يقره جميع المنصفين من المشرقيين والغربيين .

فأما أنها استأثرت بالقيم الإنسانية العليا فى الذوق والفكر والخلق فتلك هى الدعوى التى يروجها الغرض ولا يسلمها التاريخ ، فإذا كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هى المقدمة اللازمة للوصول إلى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ استعباده فهى مناجزة يقابلها الشرقيون بما ينبغى لها من التصحيح والتفنيد ، وأنها لينبغى لها أن تصحح وتفند لغرضين واجبين : أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الأثر السيئ الذى تعقبه فى نفوس أبناء الشرق فتوقع فيها اليأس وتقضى عليها بالمهانة ضربة لازم بحكم الخصائص الفطرية التى لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن ، فى زعم الزاعمين .

لقد حصروا فى طبيعة الغربى — من وراء اليونانى — كل قيمة إنسانية عالية فى مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه فى هذه الخصائص بالشرق فمخرج الغربى بمنزلة العقل الذى يطلب العلم للعلم ومنزلة الحكم الذى يقوم

على حقوق الشعب ومزية الخلق الذى تتقدم فيه الفضائل الاجتماعية على دواعى الأنانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقى من هذه الموازنة بالطرف النقيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة فلا يتلاقى طرفاه من أقصاه إلى أقصاه .

ونحن نصصح هذه المزاعم فى مناسباتها إنصافاً للحقيقة ومنعاً للضرر الذى يتخلف من آثارها وبخاصة حين يتلقفها من أبناء الشرق من يجب الشهرة بالتحدى والمنافرة ومن يجب التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائص ، وقد يما رأينا من أصحاب هذه النزعة من ينافرون بنى آدم اعترازاً بعنصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس أشرف من أياكم آدم
فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصرد وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار

فليس للغربيين امتياز فطرى فى طلب المعرفة للمعرفة بغير نظر إلى منافع الكسب والصناعة ، وليس الشرقيون محرومين من طلب المعرفة للمعرفة فى قديم الزمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون — مثلاً — كواكب السماء وعرفوا أن الشعرى تظهر فى موضع معلوم عند وصول الفيضان إلى منف فاستخدموا الرصد بعد ذلك فى تقرير مواعيد الزراعة ، ولكنهم كما قال صاحب كتاب الرياضيات فى الثقافة الغربية قد رصدها مئات السنين حيناً للمعرفة قبل أن يتبت لهم ذلك الموعد الذى انتفعوا به فى تنظيم الرى والزراعة (١) .

ولما امتاز الأغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية.

أصلية في طبيعة التركيب . . . ولكنها أبيعحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها عرش قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت في مصر وبابل لكان شأنهم في أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين . فالبلاد التي تجرى فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث في أصول الأشياء وحقائق التكوين وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتيات عليه وإلا كان المفتت كالمعتدي على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الأمد بهذه الكهانات جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الأسرار والطلاسم وابتعدت شيئاً فشيئاً عن نطاق البحث الحر إلى نطاق المحفوظات والمأثورات .

وقد حكم على سقراط بالموت وهرب فيثاغوراس قبله من وطنه وهرب غيره من الفلاسفة من أثينا دون أن تكون في بلادهم تلك الكهانات الراسخة التي طالت بها العهود في البلاد الشرقية « وحدث للأوروبيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث في حقائق الدين وأسرار الطبيعة » (١) .

ودعوى الامتياز الفطري بالحكم الحر أضعف من دعوى الامتياز الفطري يطلب المعرفة حباً للمعرفة .

فالشائع على الألسنة أن التقدم العقلي ألهم اليونان أن يختاروا الحكومة الديمقراطية — أي الحكومة الشعبية — من كلمة ديموس بمعنى الشعب في اللغة اليونانية القديمة .

وهذا خطأ من جميع أطرافه . فان الحكم الذي سمي بالديمقراطي أو النيابي لأنه يجرى بالانتخاب لم يبتدئ في أثينا حيث يتكلم الفلاسفة ويتناكرون ، بل كان مبدؤه في « سبرطة » العملية التي تختار النظام لأنه

(١) راجع كتابنا عن أثر العرب في الحضارة الأوروبية .

أيسر تطبيقاً وأنفع عملاً ، وتتبع هذه السنة في اختيار كل خطة تنتظم بها الإجراءات ويمتنع بها الشغب والنزاع .

وكلمة « ديمقراطية » لم تؤخذ من حكم الشعب ولكنها أخذت من كلمة « ديموس » بمعنى المحلة التي تقيم بها القبيلة ثم استعيرت للقبيلة نفسها وللحكومة التي تشترك فيها القبائل .

وقد كان الانتخاب في أتيما القديمة مسألة « إجراءات » كما كان في سبرطة من قبلها . ولم يحدث قط أن أحداً قال حق الانتخاب لأنه حق إنساني تناط به التبغات والواجبات ، وإنما كانت الطوائف تناله واحدة بعد أخرى كلما اضطرت الدولة إلى الاستعانة بها في القتال ، فلم تناله طائفة الملاحين مثلاً إلا بعد نبوت الحاجة اليهم في الحروب البحرية بعد وقعة سلاميس . ويصدق هذا القول على الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة بأكثر من عشرين قرناً ، فإن عمال الصناعة نالوه بعد عمال الزراعة . لأن عمال الصناعة ألزم للدولة من غيرهم في معامل الترخير والأسلح ، وأقدر على المطالبة والإضراب . ولم تنل المرأة حق الانتخاب إلا بعد نبوت الحاجة إليها في تلك المعامل مع إلحاح الطلب على المحندين من الرجال ، ولم يصل الزنوج الأمريكيون إلى تطبيق هذا الحق فعلاً إلا بعد الحرب العالمية الثانية التي اشتركوا فيها مقاتلين كما اشتركوا فيها صناعات للتخيرة والأسلح .

أما حكم الشورى الذي هو تكليف إنساني منوط بحقوق المساواة وتبعات الحكام والمحكومين ، فلم ينشأ في اليونان ولا في أمة غربية ، بل نشأ مع الإسلام في الجزيرة العربية ولم تسبقه إليه ملة ولا دعوة فكرية .

ونأتى بعد بيان الحقيقة في امتياز المعرفة وامتياز الحكم إلى موضوع هذا الكتاب وهو « قوة الشر » ومكانها من الإله الأكبر أو من نظام الوجود .

ففي الحضارات الشرقية التي أجدلنا القول فيها رأينا أن « قوة الشر »

مغضوب عليها لأنها تضر وتفسد وتلدس الغواية على الإنسان ، وخلاصة المقايير الأخلاقية هنا أن القيم الصالحة في جانب الإله والقيم الفاسدة أو الخبيثة في جانب « قوة الشر » أو الشيطان .

لكن الأمر ينقلب تماماً في معايير الأرباب اليونانيين ، لأن « برومئوس » الذي ينصب عليه غضب الأرباب وكبيرهم زيوس هو المعلم الذي هدى الإنسان إلى سر النار وألممه السعى في طلب البقاء وبصره بالجهول من خفايا الكون الذي يعيش فيه ، وتمثله الأساطير على قسط وافر من الفطنة يخار منه رب الأرباب ويخيل إليه من أجل ذلك أنه يتعامل عليه .

أما رب الأرباب — زيوس — فهو أشبه ما يكون بالشيطان في الديانات الشرقية القديمة ، وهو في جميع صورته شهوان نهم أكل شديد الطمع لا يبالي شيئاً من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارد خزانته ، ولهذا أرسل الصاعقة القاتلة على « اسقولا ب » أبي الطب لأنه يشفي المرضى فلا يموتون ويخسر بلوطس في العالم الأسفل ضرائب نقلهم إلى الهاوية السوداء .

وتتملى الأساطير اليونانية بأبناء الشجار بين رب الأرباب هذا وقرينته « هيرا » التي كانت تفاجته في خياناته الغرامية مع نساء الآلهة وبني الإنسان ، وربما عنفته في بعض هذه المشاجرات لأنه ينحرف نحو « الشذوذ الجنسي » فيهبط إلى الأرض ليختطف منها الغلام الجميل « جانيמיד » ويجعله ساقياً في الملأ الأعلى يدير الرحيق عليه وعلى ندمائه المقربين .

وتتمثل لنا صورة زيوس هذا في أساطيره الكثيرة نموذجاً للقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات الخلد والحوان ، فان غضب فانما يغضب لفوات لذة أو أكلة ، وإن رضى فانما يرضى لخدمة أو وساطة في طعام أو غرام ، وهذه إحدى المحاورات بينه وبين برومئوس . كما تمثلها لوسيان الساموسى أديب الأساطير المشهور .

— أطلقنى يا زيوس . حسبي ما قاسيت .

— أطلقك ؟ أطلقك أنت ؟ كيف . اتك لأولى أن يزد عليك ثقل

«الأغلال وأن تنطبق عليك جبال القوقاز جميعاً وأن ينهش من كبذك أثنا عشر عقاباً بدلاً من هذا العقاب الواحد ، فانك أنت الذى أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترىء على مناوأتنا ، وأنت الذى اختلست سر النار ، وأنت الذى سويت المرأة ، وما بي من حاجة أن أذكرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة وغطيته بالشحم تخدعنى عن طعامى ، فذق إذن جزاءك فانك به لجدير .

— وهل ترانى لم أصب من ذلك الجزاء ما هو حسبى ؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين يأكل من كبدى عقابك هذا اللعين الأثيم .

— انك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق .

— تأمل . اننى لا أطلب منك الإفراج عنى سباحة بغير عوض ، وإنما أهب لك سرا من الأسرار الغالية التى تعنيك .

— آه . إنها إذن لحيلة من حيل برومثيوس .

— حيلة من حيلى ؟ . . ولأى غرض ؟ إن جبل القفقاز موجود ، وإنك لقادر على الرجعة بى اليه أن كذبت عليك .

— قل لى أولاً فى أى شىء تكون هذه النصيحة الغالية .

— إذا أنبأتك حقاً بشىء عن هذه النصيحة ألا تعلم منها أيضاً أننى أحسن النبوءة عن الغيب ؟

— بكل يقين .

— إنك على موعد زيارة لثيتس .

— إلى هنا أصبت . فماذا بعد هذا ؟ قل . اننى الآن أصغى إليك .

— لا تضاجعها يا زيوس . فان بنت نيريس لا تلبث أن تحمل منك حتى تلد طفلاً يبتليك بما تبتلىنى به الآن .

— تعنى أننى أفقد عرشى ؟

— أعيانك من القضاء ، وإنما أنبئك بما سيكون من وراء ذلك اللقاء .
— إذن وداعاً يا ثيتس . وأنت يا برومثيوس سيأتيك هيفستس بالفرج
المقريب .

ورواية لوسيان لأخبار برومثيوس مع رب الأرباب تطابق رواية
« هزيون » الذى تول تنقية الأساطير وحاول أن يعرض زيوس فى معرض
التقديس والتنزية ، فلم يترفع به عن وصمة التهم الذى ينضب لأكلة
ولا عن تهمة الخيرة من ذوى الفطنة والحيلة بل ألقى اللوم على المنغضوب
عليهم لأنهم استحقوا الغضب بالتعامل عليه ، وحكى وهو يبسط القول
فى أوائل خاق الكون قصته التالية :

« . . . وولدت كليمين بنت الأوقيانوس ولدا أصمغ القلب هو
الأطلس ، وكذلك ولدت منوتيوس الخبيد وبرومثيوس اللبيب صاحب
الحيل والأساليب ، وإييمثيوس الذى كان من مبدأ أمره شرا على الناس
الذين يأكلون الخبز لأنه هو الذى أخذ من زيوس المرأة التى خلقها ،
وكان منوتيوس تائرا مشيراً فرأى زيوس بثاقب نظره أن يرجمه بصاعقة
هبطت به إلى اريوس لادعائه وإمعانه فى كبريائه . . . وقضى على برومثيوس
دى البديهة الحاضرة والعارضة القوية أن يوثق بأغلال لا يفلت منها وقيود
قاسية لا ترحمه وأن يطحن أحشائه بسهم يكشف عن كبده لينهشها النسر
الطويل الجناحين فيلتهمها بالهار ويتركها فى سواد الليل تعود سوية كما
كانت ليعاود تمزيقها فى الصباح ، وقد جاء هرقليلس فقتل هذا النسر
وأنتقا برومثيوس من عذابه . . . ولم يكن ذلك بغير رضى من زيوس صاحب
العرش الرفيع فى الأولمب وإنما أراد نباهة الشئان لابنه هرقليلس . . .
فنظر بعين الرضى إلى فعلته وإن يكن غاضباً من برومثيوس لأنه تسامى
إلى مناظرة الإله الأكبر فى الذكاء . . . وقد كانت لذلك قصة يوم انقسم
الأرباب والنسر وذبح برومثيوس توراً عظيماً ليطعمهم منه ، فسولت له
نفسه أن يخدع زيوس وأن يضع اللحم الجزل أمام غيره ويضع أمامه عظماً
مكسوا بالشحم يلمع عليه ويخفى ما تحته بلباقته ونخبته ، فلم يلبث زيوس أن

صاح به : يا ابن يابيتس سيد السادة ، ما أشد إجحافك — سيدى — فى قسمتك !

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخالدة يؤنبه ، فلم ينس برومثيوس مكره وراح يجيبه فى ابتسام وصوت خفيض : نخذ من هذه الأنصبة جميعاً ما ترضاه ، وظن أنه يحتال على الإله الأكبر بهذه الخديعة ، ولكن الإله الأكبر صاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، وأضمر فى قلبه شراً لأبناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قضائه ، وتناول الشحم الأبيض بكلتا يديه وقلبه مفعم بالغضب وروحه يتلهب سمخطاً كلما رأى العظم الأبيض مدسوساً فى خبث واحتيال ، ولهذا قضى على عشائر البشر أن تحرق العظم الأبيض على المذابح المعطرة قرباناً للأرباب الخالدين . ويزجر مرسل العمام بصواعقه محنقاً إذ يقول لبرومثيوس :

يا بن يابيتس . يا بارعاً فوق البارعين . كأنك يا سيدى لم تنس بعد أساليبك فى المكر والخداع !

كذلك قال زيوس السرمدى الحكمة فى غضبه ، وظل منذ تلك الساعة يذكر الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار إلى الخلائق البشرية المالككة التى تعيش على الأرض . إلا أن برومثيوس النسيب الحسيب غلبه دهاء واختلس قبساً من النار فى جوف قصبته وأحس زيوس مرسل الصواعق فى العلا بلذعة فى فؤاده حين لمح النار بين أبناء البشر » .

ثم مضى هزيود يروى قصة المرأة التى خلقها زيوس شراً للبشر . وجعل اجتنابها فى الوقت نفسه سرا يورث العقم وجاء برومثيوس فأغرى الإنسان بالنسل مستهيناً بشر الفتنة حذراً من شر الفناء .

وبديه أن تستهوى الشعراء هذه الأسطورة التى تحيط بمأساة البشر بين القوة الإلهية التى تحبهم والقوة الكبرى التى تبغضهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة والفناء ، فقد جرب الشعراء أخيلتهم فى نظم هذه الأسطورة وإبداعها كل ما تتسع له من أحاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم للقدر

المحيط بالإنسان بين السماوات والأرضين ، وقد تناولها في العصر القديم .
شاعر من أكبر شعراء اليونان وتناولها في العصر الحديث شاعر من أكبر
شعراء الإنجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فنظم فيها « شلى » قصيدته بعنوان
برومثيوس الطليق ، وكلاهما قد وضع برومثيوس وزیوس في مكانيهما
من الإنصاف والإجحاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل
الشاعر اليوناني زبانية زيوس نفسه يرثون لبرومثيوس الذي قضى عليه —
لعطفه على أبناء البشر — أن يوثق إلى صخرة نائية لا يراها أحد منهم ولا
يسمعه منها أولئك الذين قد شق في سبيلهم فيجزيه عطفاً بعطف وإحساناً
باحسان ، وجعل الشاعر الحديث رب الأرباب كالمارد العرييد أسكره النصر
فقام بين مخلوقاته الذين تسعدهم عزته ونعى لهم صديق البشر الذين يرفعون
إليه قرابينهم على كره منهم وفي قلوبهم غصة وعلى ألسنتهم نفاق .

ويقرأ المثقفون من الغربيين هذا الشعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة
بين ما يوحيه من القيم الأخلاقية في تصوير أصول الخير والشر وبين دعوى
الامتياز الأوربي على أمم الشرق في تصويرهم لهذه الأصول ، وليس في
وسعهم أن ينكروا دلالة الأساطير الكونية على معايير الأخلاق وبواطن
الشعور ، وليس في وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر في رواية تلك
الأساطير ، ونحسب أن السهو عن بيان هذه المفارقات في كتاب يوضع
عن « الشيطان » يخل بأمانة الكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين ، ولكن
الكاتب الشرقي — من أبناء هذا العصر خاصة — يخل بأمانتين لا بأمانة واحدة
حين يسهو في هذا السياق عن تمحيص الحقائق ودفع الأباطيل التي تتجاوز
الخطأ إلى الضرر بالنفوس .

* * *

ويبدو أن اليونان المتأخرين — قبل عصر المسيحية — قد استعاروا
من الشرق فكرة أخرى عن أصل الخطيئة أو أصل الخطايا الشيطانية جميعاً
فردوها إلى الكبرياء وأطلقوا على هذه الخلطة اسم الهوبرى Hubris وهى
كلمة قريية من دلالات الرجس في إصلاح الدينين .

ولكن الكلام في الكبرياء لا يغنى عن تعقيب ينفي عن الكبرياء محاسنها
ولا يبقى لها غير عيوبها التي ينكرها الدين كما ينكرها معيار الأخلاق .

فالكبرياء على الإله الكامل العظيم في صفاته وآلائه كفران لا شك فيه-
وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . أما الكبرياء على صاحب
سلطان يستسلم لشهواته ويصب صواعق السماء في سبيل أكلة من اللحم والشحم
فليس فيها من معنى الخطيئة كثيراً ولا قليل ، وليس في استعارتها لهذا المعنى
دليل على معيار صادق للحسنات والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع
في غير موضعه ومغزاه .

فى طريق الأديان الكتابية

قبل أن ننتقل إلى عقائد أهل الكتاب فى قوة الشر العالمية نرثث هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التى عبرها الإنسان فى هذا الطريق ، من خطواته الأولى حيث لا تميز بين خير وشر ولا بين إله وشيطان ، إلى غايته القصوى فى حضارات الأمم القديمة حيث ظهرت ديانة التوراة ، وهى أول الأديان الكتابية فى التاريخ .

آمن الإنسان بالأرواح والأطياف من أول عهده بالدين فى الممجية الأولى ، وآمن بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شىء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينها معنى فى مقياس الأخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الأنيس والحيوان الضارى ، أو بين الحشرة المأمونة والحشرة السامة ، أو بين جمادين أحدهما يفيد ولا يضر والآخر يضر ولا يفيد ، وربما تلبس عنده الجماد بروح من الأرواح أو طيف من الأطياف كلما ارتجى نفعه وارتقى أذاه .

ونحنا فى طريق الدين خطوة أخرى حين قسم الأرواح والأطياف إلى طيب ونخبث واحتاج إلى الكاهن والساحر ليروض له الخبيث بالرق والتعاوى ويجزى عنه الطيب بالدعوات والقرايين ، وعمل التخصيص عمله البهيمى فانفصل دور الدعاء ودور السحر وإن عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان ينفصل دور الراعى ودور الصياد وإن كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذى يفتك بالأناس والماشية .

ثم نحنا الإنسان خطوة أخرى من التمييز بين المنفعة والمضرة وبين المنفعة التى تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمضرة التى تصدر على الدوام من طبع نخبث ونية سيئة ، ولم يكن أمامه فى هذه الخطوة مثل على الشر الخبيث الذى يضمم السوء ويتوارى عن النظر — أقرب إلى الحس والخيال من الحية التى تزحف على التراب وتندس فى الجحور كيدا ونخديعة وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه ولم يكن فى وسعه أن يتوهم

شيئا سواه ، ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزا إلى أحدث العصور .

وعاش الإنسان عصورا مديدة يعمل الأعمال أو يتركها لأنها مأمونة نافعة أو محذورة وخيمة العاقبة ، فلما أخذ يعملها أو يتركها لأنها واجبة مطلوبة أو لأنها محرمة محظورة كانت هذه خطواته الأولى في طريق التمييز بين الواجب والمحرم وبين الخير والشر في أضيق الحدود .

ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل في أمة ذات مجتمع واحد وشرعية واحدة ، فعمت نظرتة إلى الشر والخير ولم تنزل تنسع في عمومها حتى برزت في ذهنه فكرة « النوع الإنساني » ووجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منها وأشرف جدا في مغازيها ونمراتها وهي فكرة الإنسان عن ضمير الإنسان ، ولم يكن في وسع أن يقل شيئا عن « الضمير الإنساني » قبل أن يعرف أن الإنسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والأقوام .

وكانت الحضارات الأولى خطوة بل خطوات واسعة في هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقابل أحيانا ولا تتقابل دائما في الاتجاه إلى معنى الخيرات والشرور ، وقد كانت خيرات وشرورا قبل أن تجتمع في خير واحد بمقياس واحد أو في شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بني الإنسان . كانت مسألة العالم مسألة دولة وشرعية ونظام في عرف الحضارة المصرية الأولى ، فالخير شرعية تستتب عليها الأمور والشر مروق من تلك الشرعية ، واختلال بالنظام الذي استتب عليه .

وكانت المسألة مسألة كونية في عرف الحضارة الهندية الأولى ، فالكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ولا خير في غير الأعراض عنه والنفاذ إلى ما وراءه ، ولعل الحجاز هنا قد فعل فعله في المشابهة بين صيرفة الجواهر وصيرفة الموجودات على عمومها ، فقد كانت صيرفة الجواهر فنا قديما في حضارة الآلئ والحجارة الكريمة وحلى التيجان والقصور وما عداها أو ما دونها من الحلى الزائف والحلى البذول ، وكلها كثيرة قديمة في بلاد الهند .

وكانت المسألة مسألة فلكية في حضارة « بين النهرين » بفرعها من « فارس وبابل » .

فما عدا النور فهو ظلام ، وكل ما في الوجود فهو بين النور والظلام ، وهذه هي خلاصة الديانات الثنوية في مختلف المذاهب والتأويلات .

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل في تلك الحضارة ، أو تلك الحضارات الواسعة ، ولكنها لا تزال فلكية في الصميم ، لأن الخير والشر فيها مقسومان بين السعود والنحوس كما سطرت في أزياج الكواكب ودارت عليها أفلاك السماوات .

أما الحضارة اليونانية الأولى فالخير فيها مسألة حظ والشر فيها مسألة اعتراض لذلك الحظ الذي لا حيلة فيه للمحظوظ ولا المعترض عليه .

فلم يكن « زيوس » رب الأرباب لأنه أطيب منها أو أعلم منها أو أرفع منها خلقا أو أشرف منها مقصدا ، إذ أنه في الواقع أقل من الأكثرين بين الأرباب في جميع هذه الخصال ، وإنما « الحظ » وحده هو الذي يفسر علوه عليها بغير تلك الفضائل والمزايا ، ولم يكن هذا « الحظ » عرضا من الأعراض أو مصادفة من المصادفات في الثقافة اليونانية المتقدمة فضلا عن الأساطير البدائية التي لم تخلص من سذاجتها واختلاطها ، بل كان « الحظ » مدار القصائد الكبرى والدرامات التي وضعها نوابغ الشعراء ومثلوا فيها مصائر الأبطال وما كتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مبرمة وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحيلة أو اجتهاد ، ولا نجاة منه لدى حسنة أو ذى سيئة من المتفائلين أو المتشائمين ، وإذا لخص النزاع بين زيوس ، وبرومثيوس في قصة مفهومة فليس لفهمه وجه من الوجوه على غير معنى واحد وهو النزاع بين صاحب حظ غالب وصاحب حظ مغلوب ، ولعل فلاسفة اليونان لم يجهدوا اجتهادهم في كلامهم على السبب والمصادفة — أو البخت كما ترجمه الفارابي — إلا لأنهم كانوا يلقون « البخت » أمامهم عقبة قائمة في طريق كل تفكير ، وكان إيمان العظماء به قد بلغ من الرسوخ والخطر ألا يقدم أحدهم على خطة من خطط السلم أو غزوة من

غزوات الحرب إلا بعد استطلاع العرافين عن « الحظ » المكتوب له أو عليه .

* * *

على أننا — في هذه العجالة — في مقام الحد الفاصل بين الحضارات الأولى والأديان الكتابية من وجهة النظر إلى « قوة الشر العالمية » أمام قوة الخير أو أمام المشيئة الإلهية التي آمن بها الناس وهم يعلمون فكرة « النوع الإنساني » وما تلاها من فكرة أرفع منها وأشرف وهي فكرته عن « ضمير الإنسان » .

ونحسب أن الحد الفاصل إنما هو الفارق بين التقديم والتأخير بين صفتين من صفات الإله الأكبر ، وهما صفة السيادة والسلطان وصفة الخلق والتكوين .

فالأقدمون قد آمنوا بخلق الله للأكوان ولكنهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرزوا صفة السيادة ، ولعلمهم كانوا منساقين في ذلك مع عقائد الفطريين الأسبقين الذين كانوا يؤمنون بأرواح لم ينسبوا إليها خلق شيء من الأشياء فضلاً عن خلق الكون الذي يحترى جميع الأشياء . تم تدرج الناس من عبادة الروح المتسلط إلى عبادة الإله المتسلط ، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان .

أما الديانة الكتابية فقد أبرزت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الإلهية ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير . ويأتى من هذا الفارق شيء كثير .

يأتى منه أن الشر في الحالة الأولى إنما يحسب من قبيل حماقة قبل أن يحسب من قبيل الكنود والفساد ، فلا يقال عنه أنه يليق أو لا يليق كما يقال عنه أنه عمل حكيم أو غير حكيم .

وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون واسع ، لم تعبره الأمم الإنسانية طفرة واحدة بل تقدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى في عقائد الأديان الكتابية بما قبل التوراة إلى ما بعد الإسلام .

الأديان الكتابية (٢) العبرية

نسميها العبرية لأننا لا نعرف تسمية تصدق عليها منذ نشأتها في بلاد
بين النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية .

فلا تصدق عليها اسم « اليهودية » لأن النسبة إلى يهوذا حدثت بعد موسى
عليه السلام .

ولا تصدق عليها اسم « الموسوية » لأن موسى قام بالدعوة بعد يعقوب
واسحاق و ابراهيم عليهم السلام .

ولا تصدق عليها اسم « الإسرائيلية » لأن الإسرائيلية تنسب إلى اسرائيل
وهو يعقوب بن اسحاق ، وكان ابراهيم الخليل جدهم أجمعين . يلقب
بالعبري في بعض كتب العهد القديم ، فاطلاق اسم العبرية على العقائد التي
دانت بها العشائر التي نشأ فيها ابراهيم أصدق من كل اسم آخر في الإحاطة
بديانة القوم من أوائل تاريخها وفي جميع أطوارها المعلومة إلى أن عرفت أخيراً
باسم ديانة التوراة .

وينبغي أن نميز العبرية في نشأتها الأولى من ديانة التوراة كما تلقاها
المسيحيون الأوائل وكما انتهت إلينا مهذبة في القرآن الكريم .

فقد حملت « العبرية » عبء التوسط بين الوثنيات الأولى وعقائد
التوحيد من قبل ظهورها إلى ما قبل المسيحية بنحو مائتي سنة ، فلم تستقيم
على عقيدة الإله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية إلا حوالى القرن الثاني قبل
الميلاد .

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة إنسانية عامة تتساوى
فيها جميع السلالات وتناط فيها العقيدة بضمير الإنسان غير منظور فيه .

إلى عنصر أو نسب ، وإنما نشأت وعاشت ديانة « قبيلة خاصة » أو قوم ،
معلومات .

ولم ترتفع قط بادراكها للتنزيه الإلهي إلى الأفق الذي ارتفع إليه آخر
الأديان الكتابية وهو الإسلام .

بل كان العبريون الأوائل ينكصون حيناً بعد حين إلى شعائر الأوثان .
والأصنام وعبادة البعل وتموز وعشروت ، ويعرضون عن أنبيائهم الذين
يغارون من منافسة هذه الأرباب لرب إبراهيم فلا يعودون إلى الوحدانية —
أو ما يشبه الوحدانية — إلا بعد تقرير الدعوة من جديد .

ولبثوا زماناً يصفون الإله بالصفات التي لصقت به في الوثنية أو في
ديانات الحضارات الأولى ، فكان الإله عندهم يغار من الجنس البشري
ويشفق من يوم يهتدى فيه إلى شجرة الخلود ويتوعد بالموت إن أكل منها
فيفقم الملائكة الأشداء حرساً حولها كما روى عن الأرباب البابليين
في حواشي قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام
أنهم يهتمون بهوا بالكيد لهم ونصب الفخاخ في البرية للتغريز بهم ، وأنه
لم يستدرجهم إلى سيناء إلا لأنه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيداً من أرض
وادي النيل التي أخرجهم منها .

وكانت فكرة السيادة في عبادتهم للإله غالبية على فكرة الخلق كما
كانت غالبية على أديان الحضارات الأولى ، فلم ينكروا وجود الأرباب
التي تدين بها العشائر الأخرى ، أولئكهم أنكروا سيادتها ودانوا بالولاء
للإله « يهوا » وحده كما يدين الشعب للملك وهو يعلم بملوك غيره لا يجب
عليه طاعتهم ولا يأمن العاقبة إذا أشرك بينهم وبين ملكه في فرائض الولاء .

ويتضح من مقارنات الأديان أن العقيدة تعزل قوة الشر وتحصرها
في « الشخصية الشيطانية » كلما تقدمت في تنزيه الإله واستنكرت أن يصدر
منه الشر الذي يصدر من الشيطان .

ولهذا لم يشعر العبريون الأوائل بما يدعوهم إلى عزل الشيطان أو إسناد

الشُرور إليه . لأنهم كانوا يتوقعون من الإله أعمالاً كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم يدسب تارة إلى الشيطان وتارة إلى الإله ؛ كما حدث في قصة إحصاء الشعب على عهد داود ، فانه في المرة التي ورد فيها اسم الشيطان بصيغة العلم قيل إنه هو الذى أغرى داود بإحصاء الشعب كما جاء في الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الأيام الأول ، ولكن الرواة يرون هذه القصة بعينها في سفر صمويل الثانى فيقولون إنه « حمى غضب الرب على إسرائيل غأهاج عليهم داود قائلاً امض واحص إسرائيل ويهوذا . . . » .

ولم يكن الشيطان هو الذى أغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة . بل كانت الحية هى صاحبة الغواية هنا جرياً على سنن الأقدمين . الذين كانوا يوحّدون بين الضرر الحسى وبين الخطيئة الأخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز إلى الشيطان تلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز .

ولم يذكر الشيطان قط في كتاب من الكتب قبل عصر المنفى إلى أرض بابل سنة (٥٨٦ ق.م) . . ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية ، فجاء مرة بمعنى الحصم في القضية وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم في الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذى تصدى لبلعام في طريقه ، لأنه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الحصم المقاوم ، ولم يذكر بصيغة العلم إلا حيث قيل في الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الأيام أنه « وقف الشيطان ضد إسرائيل » .

وقد كانت قرابين الكفارة تقسم على التساوى بين الإله وبين عزازيل . رب القفار أو الجنى الذى يهيمن على الصحراء ، وكان إيمانهم بوجود الأرباب الأخرى التى يعبدها غيرهم من الأمم بديلاً من صور الشياطين ، لأنها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة « يهوا » إلى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وإنما تأتى النقمة إذن من « يهوا » ولم تأت قط من أولئك الأرباب الأجنيين ، البلاء من الشياطين .

وقد تمثل الشيطان في صورة الواشى الموغر للصدور في قصة أيوب . عليه السلام ، ولم يكن منعزلاً عن الملائكة بل دخل معهم إلى الخنصرة الإلهية وجرى سياق القصة على النحو الآتى كما جاء فى الإصحاح الأول من سفر أيوب : « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً فى وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها ، فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ إنه ليس مثله فى الأرض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس انك حميته بحياطتك آياه وحياطة بيته وكل ما يملك من ناحية ؟ . . باركت أعمال يديه فانتشرت . واشيه فى الأرض . . » .

ثم تبتدىء المحنة بدسليط الشيطان على أيوب لامتحان تقواه وصبره على ضربات المرض والبلاء والفقر والحرمان .

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح والمؤرخين ونقاد العهد القديم ، ولها نظائر فى الأدب العربى إن لم تكن هى القصة بعينها منقولة فى رواية أخرى ، ونعنى بها القصة التى أشار إليها امرؤ القيس حيث يقول فى معلقته :

وواد كمجوف العير قفر قطعته

به الذئب يعوى كالحليج المعيل

فإن الجوف بلغة اليمن هو الوادى وكلمة العير فى هذا البيت بديل من كلمة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار فى وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها ، وكان حمار ابن مويلى هذا رجلاً من العمالقة له مال وبنون وزرع . وضرع فنزلت على أبنائه صاعقة فى بعض أسفارهم أحرقتهم وما معهم فكفر الرجل بالله وقال لا أعبد رباً أحرق بنى ، ثم عكف على عبادة الأصنام فأرسل الله على واديه ناراً أتت عليه وجعلته مضرب المثل فى الخراب فيقال على هذه الرواية أنلى من جوف حمار .

وأيا كان القول فى هذه القصة فلا خلاف على قصة أيوب ولا على نسبة .

أيوب إلى العرب ولا على انفراد هذه القصة بين كتب العهد القديم بتمييز قوة السر والنواية في « شخصية الشيطان » . . وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التي لم يميزها العبريون لأنهم لم يبلغوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر أن يفرقوا بين الملائكة والشياطين ، وأن ينزهوا الإله الذي يعبدونه أو تعبده الأقوام الأخرى عن قبائح الشيطان .

* * *

وقد نهينا إلى تحرير موازين النقد قبل النظر فيما كتبه الأوروبيون عن اليونان ، وليست الحاجة إلى تحريرها في صدد المأثورات العبرية بأقل من الحاجة إليه في صدد المأثورات اليونانية ، لأن الأوروبيين لا يتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم وبين تاريخ العهد القديم على اعتباره كتاباً من كتب المسيحية التي يؤمن بعض الكنائس بتنزيلها وينظر إليه بعضهم كأنه تراث أدبي موصول بتراث الدين .

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وأنها أسبق الديانات الكتابية في التاريخ أن هذه الديانة سبقت المسيحية والإسلام إلى أصول العقائد والشعائر في جميع الفرائض والعبادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل ما دانوا به ولم يعيروا المسيحية والإسلام شيئاً غير ما جاء من تطور الأفكار ولم يكن مجيئه على يديهم في أكثر الأحيان .

وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب أساتذة الأنبياء العبريين في أهم الأصول الدينية وهي مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب . ففي سفر أيوب قبل جميع الأسفار التوراتية ظهرت هذه الأصول ، وقد تتابعت النبوءات في بلاد العرب قبل أن يكون للنبوة شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الأنبياء العرب هوداً وصالحاً وشعيباً وذا الكفل . وجاء في التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب ، وجاء فيها أيضاً أن شعيباً علم موسى وهداه إلى سياسة قومه وأن بلعام كان حكماً بين إسرائيل وخصومها في جنوب فلسطين ، ومن صيحات النبي « ارميا » يتبين أن المجهول من أخبار الأنبياء في بلاد

العرب كان أكثر من المعلوم المذكور في كتب العهد القديم ، لأنه يستغيث ..
متسائلا عن هداية الجنوب : وينادى : أما من حكمة بعد في تيمان ؟
ولأنما تضحخت مآثورات العبريين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر
وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم
في مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب ، ولا بد أن يذكر على الدوام
أن هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف إليها حتى القرن
العاشر للميلاد ، لا وفي هذه الكتب خلاصة ما استفاده العبريون من مجاورة
الأمم التي تقدمهم في إدراك الصفات الإلهية والصفات الشيطانية ، ومن هذه
الكتب أخذ الآخذون ما حسبوه تراثاً إسرائيلياً وهو في حقيقته تراث
الحضارات الغابرة من أقدم العصور .

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الأصالة والنقل في القصص
الدينية والتعليق على المسائل الغيبية ، فانهم ظلوا إلى ما بعد الإسلام ينقلون
عن العرب قصصاً كان موطنها في أرض بابل وآشور كقصة هاروت
وماروت ، وأحق ما يكون بالتحية في هذا المقام أن اليهود خرجوا من
أرض بابل وعادوا إليها أيام السبي قبل الميلاد بستة قرون ، ولكنهم لم يأخذوا
هذه القصة إلا بصيغتها العربية بعد عصر السبي بأكثر من ألف سنة ، فليس
من شروط القدم في الديانة الكتابية أن يكون القوم معبرين وأنهم لا يستعرون .

ويدل تأخر المصادر التي فصلت أوصاف الشيطان على تأخر القوم
في التمييز بين الخير والشر كما ميز بينها أنباء الحضارات التي تقدمت الإشارة
إليها ، ففي الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عن العداوة
الشيطانية الإنسان وعن أثر هذه العداوة في خروج آدم من النعم وفيها ارتقاء
من وسوسة الحية إلى وسوسة شمائل رئيس الملائكة الذي عمل في القصة
مع إبليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالي القرن الثاني قبل الميلاد في الكلام
على « مشطيم » اسم الفاعل من مادة شط في اللغة العربية يقابله كلمة « شيطان »
في اشتقاق اللغة العربية ، وتحتوى التلموديات في مثل هذا العصر كلاماً عن
الشيطان بليعال روح الكذب والخداع وهو يقابل في العربية « بلاعول » .

أى لا معول عليه ولا أخلاق له ولا خير فيه . . ويحتوى كتاب أخنوخ قرابة هذا الوقت كلاما عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة أن الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان . وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكر الشياطين بأسمائها البابلية كما ذكروا « الشرير » أى الشياطين ذوات الشعر ، والليليت أى الشياطين الليلية والكتيب والديبر^(١) وغيرها من الجنة والعفاريت التى اقتبسوها بمدلولها أو فاتهم مدلولها فنقلوها بأسمائها ونعونها .

* * *

ونعود فنقول إن الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية ، وصورة الشيطان فى عقائدها هى أوفق مقياس لسلم التطور الذى ارتقت عليه من أقدم عهودها فى التاريخ إلى العهد الذى ظهرت فيه المسيحية .

فى أقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الأرضية من إنسانية وحيوانية ، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق وخلائق الشيطان .

فكان الشيطان يحضر بين يدى الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون إلى الأرض فيعاشرون بنات الناس ، وكان الإله نفسه يمشى فى ظل الحديقة مبتردا ويأكل اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم كما يفعل كل مخلوق من مخلوقاته فى الأرض أو فى السماء .

وتطورت عقائدهم فى الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة فى أساطير الوثنيين الأقدمين ، فمنهم ملائكة للآبار وملائكة للأهبار وملائكة للتلال وآخرون للمغاور والوهاد وآخرون للأسماك والحيتان ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل فى طاعة

(١) أهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذه الأسطر كتاب (الشيطان) صورة. لمؤلفه

شيطان ويتنقل بين الأعمال السماوية وأعمال الأرض والهاوية كأنها نمط واحد من الأعمال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة .

وتروى « الزوهار » أن الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صنعه الله لأول مرة ملء السماوات والأرضين فتساءلوا مستنكرين : أفى الكون إلهان ؟ فصعره الله وجبل له جسما من التراب .

وفى ميثاق أخنوخ أن الملك شمشازى قاد رهطا من الملائكة إلى الأرض ففسق وعصا ونخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعاه ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمى الجبل بهذا الاسم لأنهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ، ثم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا بهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتاك والعدوان .

ويروى عن أخنوخ أنه هو الذى عزز الملائكة المتمرسين بشهوات الأرض وقال لهم حين تشفعوا به : أولى لكم أن تهجروا الأرض وأن تعيشوا سماويين لا تأكلون ولا تشربون (١) .

ومن علماء الأساطير العبرية — مثل ابشتين وجرنبوم — من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان رواية عن المصادر الإسلامية ، وأن سعديا وابن سبأ نقلوا أسباب سقوط إبليس عن هذه المصادر ومعها كثير من الأوصاف والفعال التى يتميز بها الشياطين .

وكان الحكماء والربانيون يختلطون بكهان الديانات البابلية والمجوسية ويسمعون منهم أوصاف أهريمان إله الظلام وجنوده فينقلونها إلى الشيطان ويضعون هذا الشيطان شيئا فشيئا فى موضع العدو المناجز لله والإنسان ومما اقتبسوه من أولئك الكهان — من الفصل الثالث فى كتاب البنداهش Bundahesh — أن أهرمان تشكل بشكل الحية وملا آفاق الفلك الأعلى

(١) نراجع فى كل هذه العقائد مجلدات الأساطير اليهودية جمع جنجيبرج

والأرضين حتى لم يبق فيها منفذ لإبرة ونفث سمومه فامتلأت بها الآفاق. وسرت في كل شيء بين الأرض والسماء ولم ينهزم حتى هبط إله الخير « أورمزد » إلى الأرض فردّه إلى قراره .

ولوحظ في المقارنات بين العقائد أن اختصاص الشيطان بخلائقه التي تنافر الأخلاق العليا إنما كان يزداد ويتمكن كلما استعار العبريون شعائرهم ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وأن أنبياءهم الذين أكدوا لهم عقيدة التوحيد والتنزيه لم يجدوا منهم سميعا قبل القرون الثلاثة الأخيرة التي سبقت ظهور المسيحية ، ولم يكن تمييز الشيطان بخلائقه المنافرة للخير « عقيدة رسمية » يقرها الرؤساء المسؤولون ولكنه كان من قبيل التراث المحفوظ الذي تعرف مصادره حيناً وينقل من رواته في البيئة التي يشيع فيها بغير مصدر معلوم .

فلما تلاقى العبرية والمسيحية في الزمن كانت صورة الشيطان على ما انتهت إليه يومئذ ميراثا مشاعا لا يستند فيه اليهود إلى نسختهم من التوراة ولا أسانيدهم « الرسمية » ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولا يمتنع أحد على غير ماتهم أن يقبلها ، لأنهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المألوفة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشنا إلى نبي من أنبيائهم المعدودين .



الأديان الكتابية (ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الأناجيل من أقوال السيد المسيح أو أقوال المتحدثين إليه على اختلاف المعتقد والنية .

فذكر باسم الشيطان واسم « روح الضعف » واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم واسم يعلزبول ، وقيل عن يعلزبول بلسان الفريسيين أنه رئيس الشياطين .

وتذكر الأناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فتقول عنهم تارة أنهم صرعى الشياطين وترد كلمة الشيطان في الترجمة اليونانية مقابلة للكلمة اليونانية التي تطلق على ابليس Diabolos أو مقابلة للكلمة التي تطلق على العفريت والروح المتسلط Demon سواء كان شريرا أو غير شرير .

وفي أحد الأخبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنها أنها « كان بها روح ضعف ثمانى عشرة سنة ، وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة ، فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : يا امرأة ! انك مخلولة من ضعفك .. » الاصحاح الثالث عشر من انجيل لوقا .

وبصدد الخبولين والمصروعين وشفأهم على يد السيد المسيح قال الفريسيون أنه يحالف رئيس الشياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هذه القصة بصيغ مختلفة في الأناجيل ورواها أنجيل متى فقال إنه « أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه وتكلم الأعمى الأخرس وأبصر . فبهت كل الجموع وقالوا : أعل هذا هو ابن داود ؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يخرج الشياطين إلا (إبليس)

ببعزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت . فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وإن كنت أنا بعزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يخرجون ؟ لذلك هم يكونون قضائكم.. ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله .

وموضع الالتفات في كلام السيد المسيح هنا هذه المقابلة بين مملكة بعزبول وملكوت الله ، وأن السلطان الذي لا يكون بقوة الشيطان إنما يكون بروح الله .

وأوضح من ذلك في الإشارة إلى سلطان إبليس على العالم قصة التجارب التي امتحن بها السيد المسيح في البرية ، وكان إبليس هو الذي يجربه ويحاول إغوائه بما يملكه من العروض والمغريات ، ويستوفي أنجيل لوقا هذه القصة إذ يقول إن يسوع « رجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس ، وكان يقاد بالروح في البرية أربعين يوماً يجربه إبليس ، ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام فلما تمت جاع أخيراً وقال له إبليس : إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ، فأجابه يسوع قائلاً : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من الله ، ثم أبعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ، وقال له إبليس لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلى قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد . فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : اذهب يا شيطان ! إنه مكتوب للرب الهك تسجد وإياه وحده تعبد ، ثم جاء به إلى اورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك وأنهم على أيديهم يحملونك لكي لا تصدم رجلك بحجر ، فأجاب يسوع وقال له : إنه قيل لا تجرب الرب الهك . فلما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين ..»

وهذه القصة أوفى ما جاء في الأناجيل عن سلطان إبليس على ممالك العالم وأنها دفعت إليه ليعطى منها ما يشاء لمن يشاء ، فهو قريب من صورة أهرمان إله الظلام في ديانة الفرس القديمة ، ولكنه لا يملك إلا ما يدفع إليه بمشيئة الإله القادر على كل شيء ، وتلك أول تفرقة في الديانات الكتابية بين إله الظلام وأمير الظلام كما سمي إبليس بعد عهد السيد المسيح .

وآخرة إبليس كما جاء في كلام السيد المسيح تناسب موضعه هذا من العالم ومن العزة الإلهية ، ولا تصعد إلى المنزلة التي أنزل بها الفرس الأقدمون إله الظلام في ديانتهم الثنوية ، وفي الإصحاح الخامس والعشرين من أنجيل متى شرح هذه الآخرة كما ينتهي إليها الملائكة والقديسون وينتهي إليها الشياطين والأشرار : « ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي . . . رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . . . ثم يقول للذين عن اليسار : اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته . . . » .

ويقول السيد المسيح فيما رواه لوقا أن الشيطان يغربل تلاميذه . . . وقال الرب : « سمعان : هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة . . . » الإصحاح الثاني والعشرون .

ويذكر أنجيل لوقا قبل ذلك أن الشيطان يداخل من يوسوس لهم وأنه « دخل في يهوذا الذي يدعى الاسخريوطي . . . فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند » ليسلم المسيح اليهم .

وينفرد أنجيل يوحنا بكلام منسوب إلى السيد المسيح يصف فيه إبليس بأنه رئيس هذا العالم ، وتكرر ذلك في غير موضع فجاء في الإصحاح الثاني عشر أن السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم : « الآن دينونة

هذا العالم . الآن يطرح رئيس هذا العالم خیاراً ، وأنا إن ارتفعت عن الأرض
أجذب إلى الجميع » .

وفي الإصحاح الرابع عشر يقول : « . . إن أبى أعظم منى ، وقلت
لكم الآن قبل أن يكون . . . لا أتكلم معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم
يأتى وليس له فى شىء » .

وفي الإصحاح السادس عشر « الآن أنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس
أحد منكم يسألنى أين تمضى . لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن
قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق
لا يأتىكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذلك يبكى
العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلاهم لا يؤمنون
بى ، وأما على بر فلانى ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضاً ، وأما دينونة
فلا أن رئيس هذا العالم قددين » .

وفي إنجيل لوقا وردت الكلمة التى شُهِت لقراء الأناجيل اسم الشيطان
باسم « لوسيفر » حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الأناجيل بعدة
قرون ، ففي الإصحاح العاشر من إنجيل لوقا يقول السيد المسيح للتلاميذ
السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قبله : « إني رأيت الشيطان ساقطاً
كالبرق من السماء » .

أما غاية ما وصف به إبليس من السطوة فهو قول بولس الرسول
عنه فى رسالة كارنثوس الثانية « إن كان أنجلينا مكتوماً فانما هو مكتوم
فى الهالكين الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين » .
ولأنما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى أمامه معابد « مترا »
فى كل مكان يرحل إليه ، ويسمع أتباع مترا يذكرون إله الظلام وإله هذه
الدنيا السفلى التى تخضع لسلطانه وتنتظر نور الخلاص بعد رجعة مترا بالظفر
والغلبة فى الدهر الموعود ، وقد أخذ العبريون تقسيم الدهر إلى دهرين من
أقوال أهل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الأوائل أن يهونوا

من شرور. إله الظلام في هذه الدنيا ، بل كانوا يسبقون أتباع « مترا » إلى تعظيم الفارق بين النور الإلهي والظلمة الشيطانية ، وتسمية بولس للشيطان بإله هذا الدهر إنما هو من قبيل تحقير الدهر الذي يعبدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين الأقدمين في الزراية بأدعياء الربوبية عند الأمم الأخرى ، فكان من أساليبهم في إنكار ربوبية بعل أن يسموه — على رأى الكثيرين من الشراح — رب الذباب ورب الزبالة ، ومن ثم اسم بعلزوب وبعلزبول .

وتتميزج بأقوال بولس على الدوام تعبيرات مجازية تدل على إلمامه بالأساليب اليونانية في التعبيرات وسماحه بالآراء التي كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقونها مرة في معرض الطبيعيات ومرة في معرض الدينيات ، ومن ذاك قوله عن إبليس في رسالة أفسس « أنه رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية » ومنه قوله في تلك الرسالة « ألبسوا سلاح الله الكامل لكي تقدرُوا أن تثبتوا ضد مكان إبليس ، فإن مصارعتنا ليست مع لحم ودم . . بل مع أحفاد الشر الروحية في السماوات » .

ويرى اللاهوتيون المحدثون أن أقوال بولس هنا تحتل الإشارة إلى الطبيعيات اليونانية كما تحتل الإشارة إلى التراث العبري في مسائل الروحانيات قال الدكتور هوجو راهنر Hugo Rahner في بحثه عن الروح الأرضي والروح الإلهي في علم اللاهوت القديم : « إن عبارة رئيس سلطان الهواء في كلام بولس الرسول تثير أسئلة شتى في التاريخ الديني ينبغي أن نعرض لها إن أردنا أن نفهم آراء آباء الكنيسة الرفيعة في طبيعة الأرض الروحية الشيطانية . . أفلا يقع في أحقادنا أننا نسمع هنا نغمة مألوفة ؟ أليس تصور الروح الشيطاني سلطاناً على الطبقة المظلمة من الهواء صدى واضحاً من نظريات أفلاطون وزينقراط وبلوتارك ؟ أن التشابه لظاهر وأن البحوث التي عرضت لهذه المسألة لكثيرة متنوعة ، ولكن الأرجح على ما يبدو أن بولس الرسول إنما اتخذ هذه الصورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشائعة بين اليهود أن الأرواح الشريرة لا تهبط إلى ما

دون الهواء المحيط بالأرض وإنها من هذا المهبط تباشر عمل الشر عليها . وإنما ترمز هذه الصورة في ذهن بولس الرسول إلى خصومة أصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كونية طبيعية . فالعالم عنده في أساسه إنما هو الإنسان ، وهذا الإنسان الذي يوصف أنه أرضى وأنه موثق إلى الأرض وأنه خاطيء خلق أن يخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفع بنفسه من الظلام إلى النور ومن الشيطان إلى الله .

* * *

ومعلوم أن كتاب « العهد الجديد » هو مرجع المسيحية الأكبر الذي تتفق الكنائس على اعتماده في العقائد الجوهرية ، ولكن العهد الجديد ينقسم إلى ثلاثة أقسام « أولها » الأناجيل و « ثانيها » أقوال الرسل و « ثالثها » أقوال الصحابة والرواة المتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء في شروح بعض اللاهوتيين المحدثين أن الأناجيل وحي غير مصحوب بتفسير ، وأن أقوال الرسل وحي وتفسير ، وأن أقوال صحابتهم تفسير بغير وحي ، وقد جاءت في أقوال الرسل وما بعدها تفسيرات في المنزلة الأولى من ماثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعاً ما جاء من خطيئة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تسبق الإشارة إليه في الأناجيل .

ففي هذه المراجع أول إشارة إلى تسمية الحية بالشيطان كما جاء في الإصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل حيث يذكر التين ويقال عنه « أنه التين العظيم » ، الحية القديمة ، المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم . . . » .

وفي رسالة يوحنا الرسول الأولى « من يفعل الخطيئة فهو من إبليس ، لأن إبليس من البدء يخطيء ، ولأجل هذا ظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس » .

وفي هذه الرسالة أيضاً أن الإنسان من الله أصلاً ولكن « العالم كله قد وضع في الشرير » .

وتتكلم الكتب « البوكريفية » عن دخول الموت إلى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لا يرتقى إلى طبقة الأقوال الماثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد للترجيح والتفسير ، وسمى بالكتب « البوكريفية » بمعنى « السرية » أو الخاصة في اليونانية لأنه كان من المراجع التي يضمن بالإطلاع عليها على غير الواصلين في الإيمان والمعرفة .

وعندنا أن الفرق في أوصاف الشيطان بين الأناجيل وما تلاها إنما هو الفرق بين الأوصاف السماعية والأوصاف القياسية أو العقلية فان الشيطان لم يتقرر له « شأن » أو دور معلوم في الأديان الكتابية قبل القرن الأول للميلاد ، وإنما كان في الكتب العبرية أو اليهودية واحداً من الملائكة المغضوب عليهم أو واحداً من الأرواح المتمردة فلا يعرف إلا بما سمع من أوصافه ولا شأن له في ذلك إلا كشأن الأبطال التاريخيين أو « الشخصيات التاريخية التي تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس .

أما الشيطان الذي تقرر له « دور » معلوم أمام الله فلا يتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر أن ينسب إليه كل ما يقتضيه ذلك الدور من الألوان والملامح والخصائص والتبعات ، ويجوز له كذلك أن ينسب له ما سوف يأتي به بعد أزمنة طويلة في نهاية العالم ومصيره المقدور .

وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الأرضي في مقابلة العالم الإلهي في السماء ، فكل صنيع يوصف بالشر فهو من عمله بغير حاجة إلى رواية السماع ، وكل خطيئة أو غواية أو ضلالة أو عاقبة محذورة فانما تنسب إليه كما تنسب الخصائص إلى معدنها بحكم البداهة التي لا تحتاج إلى عيان أو إلى إسناد ، وعلى هذا القياس قال بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس أن رؤساء هذا الدهر — أي الشياطين كما جاء في تعبيراته السابقة — هم الذين صلبوا السيد المسيح ، ورماهم بالجهل وقلة الدراية بعقبي ما يصنعون لأنهم ظنوا أنهم يخدمون مقاصدهم

بتقديم المسيح إلى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الأزل بما دبروه ورتبوه ، فقال عن حكمة الإيمان وحكمة الشيطان « إننا نتكلم بحكمة بين الحكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله في سر الحكمة المكتوبة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لحبنا ، ولم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لأنهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد . . . » .

فإذا كان الأئمة الأسبقون في صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد في الأناجيل ولا في كتب العهد القديم فانما يذكرونه بالصفات التي تكون له لا بحالة بحكم طبيعته المميزة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للخير والحق وصدق النية في كل عمل مضى وكل عمل يتكشف عنه الغيب .

وينبغي أن تلاحظ النقلة الواسعة هنا في تطور الأخلاق والمقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التي شاعت في القرن الأول للميلاد .

فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد في العقائد البدائية ، وكان الروح الضار كالحيوان الضار في مقاييس الأخلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون أن يلقنها الشيطان غواية آدم ، فهي حيوان ضار يؤذى ويخيف وكفى بذلك وصفا للشرير في العقائد البدائية ، فما زال الضرر والشر يتميزان ويختلفان في الميزان حتى وجب عقلا أن يكون الشيطان وراء الحية في غواية آدم وحواء ، وحتى وجد في عالم الضمير فارق واسع بين الخوف من لدعة الحية الماكرة ودسيسة الشهوة والعصيان .

* * *

إلا أن المسيحيين الأوائل استرسلوا في حديث الحية لأنهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتابع في « رؤى » الفسائك والمتنبئين مستقلا عن تمثيله للنفس في بحوث الفقهاء

وعلماء اللاهوت . فاذا تكلم اللاهوتى عن الشيطان فانما يستنبط . أوضافه بالقياس إلى طبيعته وعمله كما تقدم ، ولكن الناسك المتنبىء صاحب الرؤى والمشاهد الغيبية إنما ينقل رموزا وجدانية قابلة للمشاهدة فى الحسن كما هى قابلة للمشاهدة فى الرؤيا ، وليس فى الأشياء التقليدية ولا فى تشبيهات الخيال أقرب من الحية القديمة وإذا بولغ فى تشويهها وتشبيحها وتعظيم ضررها فهى النين الذى يضيف اليه الخيال من الأشياء والطباع ما لم يتحقق فى الحية المعهودة ، فهو ذو رأسين أو ذو أرجل وأجنحة أو ذو لسان ينداع بالشرر ويقذف باللهب ، وقد ساعد على انتشار هذه الصورة للشيطان أنها كانت شائعة من أقصى الصين إلى أرض بابل وآسيا الصغرى ، وأنها كانت شائعة كذلك فى كتب العهد القديم ، وصادفهم خطر التنين الأكبر أو خطر الحية الشيطانية فى مقر عبادتها بآسيا الصغرى فكثرت فى رسائل العهد القديم إشارات النساك إلى « برجاموم » عاصمة هذه العبادة التى يظهر أنها كانت متوارثة هناك منذ زمن قديم وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل منع غيرها من الدعوات التى كان أصحابها يتألبون عمداً أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد .

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى مقدمة للصور الفنية التى اختارها المصورون والمثالون بعد انتشار المسيحية وقيام هياكلها واشتغال أصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهناك صور للشيطان على مثال التنين وصور أخرى على مثال التنين فى جميع أعضائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس إنسان ذى قرنين أو أذنين صاعدتين فى مكان القرنين ، وكلما تقدم اللاهوت فى وصف طبيعة الشيطان غابت ملامح الحية والتنين وخلفتها ملامح إنسان خبيث الطلعة يعمل الفن عمله فى إيداعه دلائل الشر التى تغنى عن استعارة الشبه الشرير من مشابه الحيوان ، ولكنهم ظلوا إلى زمن آخر يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون فى هذا الشبه بصورة « الساتير » اليونانى المتهالك على الشهوات ومعاقرة الجمور .

أما الصورة اللاهوتية فقد أفاض الآباء الأولون فى شروجهما وفروضها

واجتهد كل منهم على حسب علمه واطلاعه في تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان Tertullian المتوفى سنة ٢٣٠ م وأوريجين المتوفى سنة ٢٥٤ م أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة في وصف الطبيعة الشيطانية وإسناد الأفعال والنيات التي تلائمها إلى الشيطان وأجناده على حسب درجاتهم في السيادة العالية ، وعند ترتوليان أن الشيطان الأكبر يرصد شيطانياً من جنوده لكل إنسان من بني آدم وحواء ، وأن أدلة وجود الشياطين عامة متواترة في عقائد المهتدين والوثنيين المضللين ، وكلهم يسمون أن الشيطان يتعقب الإنسان ويتسلل إلى مخادع نفسه على غفلة منه أو بعلمه واختياره ، ولكن المسيحي المؤمن بقدره السيد المسيح المستقيم على منهجه يملك السلطان النافذ في هذه الشياطين ويستطيع أن ينفذ منها فرائسها إذا صدقت نيتهم في طلب الخلاص منها ، وليس المسيحي الذي يعجز عن قهر الشيطان خليقاً عنده بوصف الإيمان .

ولا شك أن « أوريجين » كان فقيه القرون الثلاثة الأولى غير مدافع ، وكان له من العلم بحكمة عصره ما لم يكن لأحد من معاصريه ، وكان إلى جانب ذلك مؤمناً راسخ الإيمان تقياً شديد التقوى ، ولم يكن له مطمع في رئاسة كهنوتية أو غنيمة دنيوية ، فقد جب نفسه ليشقى فتنة الشيطان وهو يعلم البنات والفتيات ويعظ النساء في البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعل ذلك أنه يحرم نفسه مناصب الكهنوت العليا التي تحرم على المحبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان حماية لسريته من غواية الشيطان ، وهذا مع إسهابه في التفرقة بين دواعي الشر التي يوحى بها الشيطان وبنوده ودواعي الشر التي ركبت في طبيعة الإنسان وهي شهوات الطعام ولذات الجسد وفي مقدمتها اللذة الجنسية ، ولعله في كل ما كتبه عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات له يثبت قدرته على الغواية كما أثبتنا على ذلك النحو الرهيب .

ولم يجد أوريجين مشقة في إسناد الشر والخطيئة إلى سيادة هذا العالم ، فإنه عاش في زمن قد اجتمعت مذاهبه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النقص والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين النساك والزاهدين بأن طلب

السيادة هو المحنة التي أسقطت إبليس وجنوده وأن « التواضع » هو شعار ملاكوت السماء وهو آية المسيح المخلص الذي يزهد في المواكب ويأتي كما أتى من قبل على حمار ابن أتان . غير أن أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقاً لما تعلمه عليه الفلسفة والدين ، ورأيه في تكوين الشيطان أنه ذو جسد يلائم مقامه في الهواء الكثيف المحيط بالأرض ويتطلب الغذاء من الدواخين والأبخرة والدم الخالص مجرداً من اللحوم والعظام ، ولهذا يحاول أن يفسد القرابين الإلهية ويختلس أجزائها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها .

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرجيم ، ويوافق بعض الذين سبقوه فزعموا أن الطبيعتين تلتقيان في ذرية الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فعشقوا بنات الناس وقالوا أنهم حسنة ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لا يعرفون عقباه .

وللشيطان سبيلان إلى غواية الإنسان في رأى الفقيه الفيلسوف : أحدهما أن يوسوس له من حيث لا يراه لأن طبيعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو يجرى من سريرة الإنسان مجرى النفس الذي لا تراه العينان ، والسبيل الآخر أن يستولى عليه ويتمخبطه على هواه ويبتليه بالأمراض والعاهات ، وقد يسلط الأوبئة والطواعين على المدن والأقطار الواسعة لينادوها عن رحمة الله ، وله جنود في كل مدينة وكل فطر وبين كل معشر يعبدون الأوثان أو يعبدون ربا من الأرباب غير الإله الواحد الذي يدين به أتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الأرباب والأوثان إلا شياطين من جنود إبليس تنزع أبناء آدم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم العقيدة الصالحة بما يشبهها من الشعائر المسيحية ، ليختلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال .

وكان من عقائد أوريجين أن التمييز بين الخير والشر فطرة في كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء في ذلك للشياطين عامة ولا لرئيسهم الأكبر إبليس ، فهم لم يخلقوا منحرفين مضللين ولكنهم انحرفوا وضلوا

بما داخلهم من الكبرياء والتمرد والحسد فغلبتهم الشقوة وعز عليهم أن يستمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فأقبلوا على الشر وأمامهم سبيل الصلاح يمضون فيه لو سلسلت له قيادتهم ورفعوا على أعينهم تلك الغشاوة التي وضعوها عليها بأيديهم ، ولا بد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحنة وانقضاء التجربة التي يبتل بها العالم ب كله آخر الزمان .

ولما أراد أوريجين أن يقدر للشيطان مصيره في نهاية العالم لم يتبع أقوال المتنبيين وأصحاب الرؤى بل اتبع النصوص القديمة وفسرها على هدى الحكمة الحديثة في عصره ، ولم تكن في عصره حكمة أحب إليه من الحكمة الرواقية التي تلقاها اليونان قديماً من الهند وبثوا فيها من عقائد فيلسوفهم فيثاغوراس قبساً يقر بها إلى العلم وأدب السلوك .

فقد وجد أوريجين في عصره قصصاً دينياً مستفيضاً عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة في آخر الزمان ، وفي هذه القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وإبليس رئيس الشياطين ، وأطوار القتال الذي يدور سجلاً بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون في باطن الأرض أو يقيدون بالأغلال حتى الموعد الأخير ، وتروى هذه القصص أخباراً عن الشياطين والملائكة المطرودين الذين لا يستطيعون الصعود إلى السماء أو الذين يصعدون إليها فيرتدون عنها خوفاً من الرجوع الإلهية ، فقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو في مغاور الأرض يتحصنون بها من هجمات الملائكة الصالحين والقديسين المقربين ، ثم تنشب الملحمة الأخيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الأول بألف سنة ، فيذهب أهل النار إلى النار ويرتفع أهل النعيم إلى النعيم .

أما « أوريجين » فنهاية العالم عنده هي نهاية الدورة الكونية التي اعتقدها اليهود من قبل ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم وفرضوا لها آداباً من آداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مطهراً من شوائب الحياة الأرضية ، فيخلص إلى الوجود الحق في آفاق عليين .

وستنتهى الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الأبدية ويبطل الفناء ويموت الموت فلا خطيئة ولا عقاب فى عالم لا موت فيه ، ويتعذر — طبعاً وعقلاً — أن يبقى الشيطان على شره بعد زوال معدنه وخلص العالم من الموت الذى ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الجائز ألا يتم الخلاص والتطهير على درجة واحدة بل يأتى تباعاً على درجات مترقيات ، ولكنه لا يكون متى أتى الا كما ينبغى أن يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب .

* * *

ونكتفى بما لخصناه من شروح أوريجين وفروصه فى التعريف بالشيطان أو التعريف « بالشيطانيات » على الأصح لأنه قد جعل هذا التعريف باباً من أبواب الدراسة اشتهر فى الأزمنة الأخيرة باسم « الديمنولوجى » أى علم الشيطانيات ، ولكننا لا ننتقل منه إلى ما بعده دون أن نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة جديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص . ففى ذلك العهد المريب لم تكن فى العالم عقيدة غير المسيحية توحى إلى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالأمور المغيبة فى أدق الجزئيات ، وذلك هو سر قوتها وارتياح النفوس إليها من ظلمات الحيرة والريبة التى رانت على المذاهب جميعاً وبركتها لمعتقديها أشبه شئء بالسلوى التى يزجى بها الفراغ ولا تمضى مع الجلد خطوة إلا عادت إلى اللعب خطوات ، وقد كان أشبه المذاهب بالجد فى ذلك العصر مذهب المعرفين Gnostics الذى كان فى حقيقته عنواناً لكل مذهب يرد على الخاطر فى تلك الآونة ، إذ كانت المعرفة ألواناً وكانت ألوان الوسائل التى تطلب بها لا تقل عن ألوانها ، ومنها . فيما نحن بصدد من حديث الشيطان — معرفة الحيرة باللذات والردائل المحرمة لأن الجهل بها يسلب طلاب المعرفة حظاً يتاح للجاهل ولا ينبغى لهم أن يتجنبوه ، وقد أباحت طائفة من هؤلاء المعرفين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التى كانت تعبده وتتقرب إليه بأسباحة الرذائل والأرجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقض فترة طويلة على هذه النحل المتفرقة

حتى تجمعت منها نخلة كبيرة أوشكت أن تعم القارة الأوربية من أقصاها شرقاً إلى أقصاها غرباً في القرون الوسطى ، وبقيت منها — كما تقدم — بقية إلى أوائل القرن العشرين .

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على أسماء أكبر من أسماء القديس أوغسطين والقديس توما الأكويني ومارتن لوثر رافع علم الثورة الذي سمي هو نفسه شيطانياً وسمى الحبر الأعظم في زمانه بالشيطان .

عاش القديس أوغسطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ - ٤٣٠) وأحاط بما تقدمه من الشروح والفروض في موضوع الشيطانيات ، وذهب في علة سقوط الشيطان مأهياً كمنهـب أوريجين فقال إنه خلق للخير ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه فأنزله الله من سماء الأثير الصافي إلى هواء الأرض الكثيف ، ولا يمتنع عند أوغسطين أن يكون هذا الجسد ملائماً للتناسل من الأجساد البشرية لأن الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الآدميات متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين ياعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد أن يكون جسد الشيطان أرفع من جسد الإنسان كما زعم الفيلسوف الأفلاطوني أبوليوس Apuleius الذي كان له بعض الحظوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى أن يقول إن امتياز الشيطان بالجسد يرفعه رتبة على الإنسان فان الحيوان يمتاز على الإنسان بالحس كما يمتاز النسر بالنظر والكلب بالشم والطير بالخفة ، ولا يقال أنها أرفع منه رتبة لرجحانها عليه في هذه الحواس ، وقد يخف جسم الشيطان عن الجسم البشري ولكنه يصلى بجسمه نار العذاب كما جاء في عيد السيد المسيح .

وأوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن مدينة الله أو عن ملكوت الله ، وتقابله مملكة العالم التي قد يسيطر عليها الشيطان عنوة أو بالكيد والخدعة ، وفي وسعه أن يتسلل إلى الأرواح من مسكنه في طبقات الهواء

أو يترصد لها وهي صاعدة إلى الملأ الأعلى فانها في معراجها لاتنى نعب
بالشياطين الملعونين والملائكة الأبرار ، فإذا كانت في حياتها قد غلبت
سيادة الشر بقمع الشهوات والزهد في المطامع فلا سلطان للشيطان عليها
في معراجها إلى عليين ، وإذا خرجت من الدنيا وفيها شائبة من غواية
الشيطان عالقة بها فتلك هي العلاقة التي يقنصها منها الشيطان ويعوقها
بها من الصعود ويهبط بها إلى هوائه أو هاويته حيث يشاء .

ويرى أوغسطين كمن تقدموه وأتوا بعده أن الشيطان علم بالسحر
قادر على نشر الأوبئة والمداواة منها ، وإن الأوثان المعبودة شياطين لها هذا
العلم وهذه القدرة وفي وسعها أن ترضى عبادها بقضاء المطامع وترهبهم
بالخوف والمرض ، ولكنها قدرة محدودة تقتصر عن عزيمة الإيمان إذا صدقت
نية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون صدى في حربهم معها لأنهم معانون
عليها بكفارة السيد المسيح .

وأعظم الأعلام في اللاهوت المسيحي بعد أوغسطين فيلسوف القرون
الوسطى توما الأكويني (١٢٢٧ - ١٢٧٤) الذي فلسف العقائد المسيحية
على مثال لم يسبق إليه ولم يلحقه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الإرادة
التي يملكها كل مخلوق عاقل ، وأولهم الشيطان لأنه كان في المنزلة العليا
بين المخلوقات العلوية وكان امتحانه من ثم أعسر من امتحان سواه ، وكانت
قدرته كذلك على الثبات والنجاة أعظم من قدرة الآخرين ، فأذهلته
العظمة عن كل شيء غير نفسه وطمح إلى مساواة الله في عظمته ومشاركته
في وحدانيته ، وتبعه من تبعه ممن هم على غراره فهوى من عليائه وهوى
معه تابعوه .

ويسمى الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعاً بالكائنات العقلية أو الكائنات
الذهنية ، تتميزاً لها من الكائنات الحيوانية المولدة من التراب ويقول إنها
مسلطة على عقول البشر لاستدراجها واستخراج غاية ما انطوت عليه من
الصدق والمناعة ، وقد يحدث ذلك بإذن الله وقضائه ، وقد تكون درائعه

الكبرى مستقرة في غرائز الإنسان ويكون الإنسان فيها عدواً لنفسه إذا غلب عليه هواه قبل أن يغلبه وسواس الشيطان .

ويجاري الفيلسوف من تقدموه في الاعتراف للشيطان بالقدرة على العجائب والأفانين التي تشبه المعجزات ، ولكنه يحد هذه القدرة حد العالم الفيلسوف الذي يرفض عقلاه التسليم بالعبث في نظام الطبيعة ، فلا خوارق على التحقيق في طاقة الشيطان . ولا تعقل الخوارق إلا من عمل الإله الذي وضع للعالم نظامه وأجراه عليه ، وإنما يستطيع الشيطان إثارة المادة بعناصرها فيبدل بها من تراد له الفتنه ولا يتعدى هذه العوارض إلى تبديل جوهر المادة أو تبديل جوهر الروح ، وكل ما يصنعه الشيطان مما يلتبس على الناس بالمعجزات فانما هو خداع لحس الإنسان حتى يرى الأشياء على غير صورها ، أو تبديل لأشكال تلك الأشياء لا ينفذ إلى الصميم .

ولعل القديس توما الأكويني قد قال كلمة اللاهوت الأخيرة في هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأى غير هذا الرأى في تصوير الشيطان أو تصوير قدرته على بنى الإنسان .

ويأتى أكبر الأعلام بعده في اللاهوت المسيحي على اتجاه غير هذا الاتجاه ، ولكنه لا يغير شيئاً من وصف الشيطان كما يغير الشيء الكثير من وصف الدين استهواهم الشيطان في رأيه بين رجال الدين ورجال الدنيا .

جاء مارتن لوتر في أواخر القرن الخامس عشر وعاش إلى ما بعد منتصف القرن السادس عشر (١٨٤٣ - ١٥٤٦ م) ولم يتغير بين عصر الأكويني وعصره معتقد واحد من المعتقدات التي كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية .

فكان لوتر يؤمن بوجود السحرة ومبايعتهم سرا أو علانية لأرواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الأوبئة والآفات واستحقاق السحرة قضاء الموت الأبدى إذا ثبتت عليهم مملأة الشياطين على المؤمنين الأبرياء ، وتمتلىء أحاديث المائدة التي نقلت عنه بما كان

يرويه جلسائه من قصص الشياطين السحرة في زمانه وقبل زمانه ، ومنها أن رجلا من المؤمنين بصق على الشيطان فلاذ بالفرار ، وأن رجلا آخر لقيه فكسر له قرنا من قرونيه ، وحاول ذلك رجل آخر دونه في الإيمان فبطش به الشيطان . ونصيحة لوثر للمؤمنين أن الشيطان سخرية فاضحكوا منه ولا تهابوه !

ومما تحدث به في مجالسه قصة غن الإمبراطور فردريك الذى كان يصادق علماء العرب ويطالع على علومهم ويتهم بالزيغ والكفر لاشتغاله بالمحرّمات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة أن الإمبراطور دعا إلى مائدته ساحرا مشهورا وأراد أن يناجزه فى القدرة فجعل له فى يديه مخالب كمخالب الرخاخ الأسطورية ذات الأجنحة والقوائم والأنياب ، فمخجل الساحر ولم يمد يديه إلى الطعام ... وأنهم لعلى المائدة إذا بصيحة من الطريق تزعج الإمبراطور فينهض إلى النافذة ليطل عليها . فيغتم الساحر فرصته السانحة ويجعل للإمبراطور قرونا على رأسه كقرون الأياثل ، فلا يستطيع أن يرتد برأسه من النافذة وعليه تلك القرون ...

وعلى جدار من جدران قلعة « وارنبرج » مداد سائح بقيت آثاره ، وعلم الزوار مما يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين أنه من مداد الدواة التى ألقاها لوثر على الشيطان حين تراءى له ليصده عن دعوته ويكفه عن هجماته على أحبار زمانه ، ولم يرح لوثر طوال أيامه إلى آخر حياته ينادى بأنه فى حرب مع الشياطين ويحسب القائمين بالسلطان فى الأرض باسم الدين ثوارا على ملكوت السماء .

* * *

ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاضطدمت فى كل وجهة يتجه إليها بالكلام فى « الشيطانيات » أو علم « الديمنولوجى » كما عرف فى الزمن الأخير .

كانت النهضة العلمية تصطبغ بهذا البحث خاصة لأنه كان يدور على

السحر والسحرة ومخالفة « المعرفة الدنيوية » للشياطين أعداء الله وأعداء الدين وكانت مجالس التفتيش تعمل عملها في مطاردة السحرة أو المتهمين بالسحر لأنهم ينظرون في الكتب التي لا يقرأها اللاهتيون .

وانقسم الباحثون في « الدينمولوجي » قسمين متنازعين ؛ : قسم اللاهوتيين وهمهم الأكبر أن يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسم العلماء التجريبيين وهمهم الأكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحالف مع الشيطان ، ويشككوا في وجود الشيطان أو يجزموا بانكاره لأنه لا يظهر لهم عيانا ولا يظهر لهم بالتجربة والبرهان .

غير أن اللغة التي تداولها الناس من قبل القرون الوسطى قد تلتقت من « الدينمولوجي » تعبيرات مفهومة غير ملتبسة على أحد يتكلم بها أو يسمعها ، وجرت هذه التعبيرات على ألسنة المتدينين كما جرت على ألسنة المنكرين أو المتشككين في العقائد الدينية . فلما كان لوثر يقول - مثلا - عن الربا وبيوت التجارة والمصارفة في القرون الوسطى انها « مختبرات » شيطانية وأن الشيطان هو الذي يدير تلك البيوت لحسابه ، لم يكن أحد يحمل كلامه على المحاز أو يشك في قصده إلى شيطان غير شيطان النصوص الدينية الذي يجوز أن يبدو للعيان أو يعمل مع أصحاب تلك البيوت في الخفاء . ولكن المتدينين وغير المتدينين شهدوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأجهزة البهخار الضخمة فوسموها « بالشيطانية » ونعتوها بالصناعة السوداء أو بصناعة الظلام وهم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذي لا يختلفون فيه ويفهون منها أن تلك الصناعة نخلو من الرحمة والعطف ، مظلمة من ظلام الفحم والدخان أو ظلام النشم والقسوة ، سواء نسبوها إلى الشيطان أو جعلوا الشيطان علما مفهوما على كل هذه المساوئ والنعوت .

ويغلب على الظن أن سهولة التعبير المجازي على هذا النحو سولت لأناس في القرن التاسع عشر أن يقحموا فوارق اللون والعنصر في أحاديث « الدينمولوجي » وأن يزعموا كما زعم الدكتور كارتررايت أن الشيطان

لم يتكلم في الجنة بلسان الحية بل كان كلامه بلسان زنجي أسود على مثال الشيطان الذي كان يصبغ بالسواد في القرون الوسطى ، وكأنما أزداد كارترايت أن يترقى بالفكرة درجة فوق الدرجة التي وصل إليها الأسقف آدم كلارك في تعليقاته على سفر التكوين (بسنة ١٨٢٥) فجعل الحية زنجية بعد أن كانت في رأى كلارك قردا من فصيلة الأورانج أو تانج .. وفي هذه الآونة - أو حوالها - كان الرحالون يسيحون في أمريكا الجنوبية فيسمعون من أهلها البيض أن الزنجي هو البهيمة الكبرى التي ذكرت في كتاب الرؤيا الأبكريفية (١) ويتشكك الكثيرون منهم في نسبته إلى حام ، لأنهم لا ينسبونه إلى فصائل الأدميين..

يعود نقاد الاجتماع المحدثون إلى عقيدة الخطيئة وزلة آدم في الفردوس وهبوطه مغضوبا عليه إلى الأرض فيحاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف هذه الأحوال بين عصر النبلاء وعصر أبناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء النقاد جون فلكسر Flexner الأمريكي الذي يقول في فصل كتبه عن الملك والفنان : « إن عقيدة القرون الوسطى أن الإنسان سيء بطبيعته من أثر الخطيئة المتأصلة فيه وقد وافقت الميول الأرستقراطية لأنها سوغت كبح الفرد والحد من حريته . بيد أن الطبقة الوسطى الناهضة باجتهادها لتستقبل الفرص السانحة لها أصرت على براءة الإنسان وأنه قد ولد ملكا وأفسدته النظم التي فرضها عليه الملوك .

وليس في المقارنة بين العقائد والأحوال الاجتماعية ما يرجح هذا التفسير أقل ترجيح ، لأن عقيدة سقوط آدم تشمل الإنسان الحاكم وتشمل الإنسان المحكوم ، وقد اقترنت بها عقيدة ملازمة لها أشد قسوة على الحاكمين . من كل عقيدة شاعت في العصور الحديثة ، وتلك هي عقيدة السيادة الشيطانية على الأرض وأن سادة هذا العالم شياطين أو حلفاء للشياطين .

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التي تفرق بها كل

(١) كتاب « الكبرياء المنصرى » تأليف دنجوال . Racial Pride by Dixgwall

التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء أو ملكوت الله ، وتكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة في هذه الدعوة قبل غيرها من دعواتها الأصيلة ، فقد كان حتما لزاما أن تجتهد المسيحية اجتهداها كله في التفرقة الكاملة بين مملكة الأرض وملكوت الله الذي بشر به السيد المسيح : كان ذلك حتما لزاما لأنها نقلت رسالة المسيح المخلص من إقامة العروش على الأرض — أو تجديد ملك داود — إلى إقامة الملكوت الإلهي في السماء ، وكان ذلك حتما لزاما لأنها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الأرض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم في حمى الله صاحب الملكوت الأعلى إذ يكون أصحاب السيادة والطغيان في حمى الشيطان وفي هاوية الأرض وما وراءها من هاوية الجحيم : « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزاني لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات .. » .

فرسالة المسيحية في جانب الإنسان المغلوب ، وضيافة العالم هي ثمرة الخطيئة التي باء بها الغالبون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيما له بل تهويانا من شأن العالم وتحقيرا لغنايمه ومطامعه وشهواته ، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية في الحضارة الحديثة من أن يقول أنه هدم سيادة الشيطان وأنه علب الخطيئة في معقلها وكفر عن جرائرها بالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية .

وعلى هذا الفهم ينبغى أن تفهم رسالة المسيحية التي بشرت بملكوت الله وجعلت هذه البشارة مقارنة للنعمي على السيادة الشيطانية والأزراء بها ، فكل تعظيم لسيادة الشيطان فهو في لبابة تهوين للعالم الذي يسوده وتقديس للملكوت الإلهي الذي يربجوه المساكين والحزاني والودعاء والمطرودون من أجل البر وصانعو السلام .

أما رسالة المسيحية في تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهي تفرقة أخرى لا تقل في قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء .

لقد كان الضرر والشر مترادفين في الديانة العبرية أو كالمترادفين ، فالمسيحية هي التي فرقت بين الضرر الذي هو نقيض السلامة والأمان والمنفعة ، وبين الشر الذي هو نقيض الخير والفضيلة والصالح ، فذلك ضرر مرتبط بالأنانية ، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى .

إن المسيحية هي التي فرقت بين مثال الضرر في الحياة الحيوانية ومثال الشر في الروح الخبيث الذي ينمط سمومه في القلب ولا يضير الإنسان إلا حيث يضار حقاً في أشرف خصال الإنسان .

* * *

وكلمة عابرة يقال في ذيل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التي جاءت بها للتعريف بمعاني الشيطان .

إن الكنيسة الرومانية إذا رفعت أحداً إلى منزلة القديسين لم تفعل ذلك قبل التحقق من براءته من العيوب التي تنتفي معها القداسة ، وتعهد في هذه الحالة إلى وكيل المخصوصة عليم بكل ما يقال عنه لانتقاصه بالحق أو بالباطل .

وكيل المخصوصة هذا يسمى بالحامي الشيطاني *Advocatus Diaboli* تشبيهاً لعمله بعمل الشيطان في إنكار فضائل أيوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل الشيطان في امتحان الخير ، وأنه دور لازم في تقرير كل قداسة يخلقه الناس مختارين ولا يصح من أجل هذا أن يقال إنه وهم من اختراع الخيال .

الأديان الكتابية (ج) الإسلام

دور الشيطان في الديانات الكتابية الثلاث مختلف :
واختلافه بينها جوهري يدخل في كيان كل ديانة منها ، وترتبط به مقاييسها للخير والشر والتبعة والعقاب .
فهو في الديانة العبرية دور عامل مستغنى عنه ، لأنه شبيهه بغيره .
وهو في الديانة المسيحية دور عامل فعال لا يتفصل من حكمة الوجود كله .

وهو في الديانة الإسلامية دور عامل فضولى مرذول ، يختلس ويروغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف .

على مسرح الخلق دور الشيطان في الديانة العبرية دور « النكرة » الذى ينوب عنه كل نكرة مثله ، إذ ليس بين الشيطان والملاك طريق مفترق ولا عمل منقسم ، وليس بين الإله الذى يعبدونه والإله الذى يعبدونه سواهم خلاف فى الرضى والغضب ولا فى النعمة والنقمة غير الخلاف بين النظراء فى السلطان .

أما فى المسيحية فدوره على مسرح الخليفة دور الشرير فى قصة الخلق كله ، إذ كان قوام الخليفة سجالات بين الخطيئة والكفارة أو الغفران ، فلولا غواية الشيطان لم يسقط آدم ، ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة إلى الخلاص من طريق الفداء .

وليس فى الإسلام ذنب يرثه أحد من أبيه أو يورثه لبنينه ، فغواية الشيطان لا تخلق الخطيئة ولا تغنى منها ، وشوكة الشيطان لا تحمى أحدا ولا هو يسمخها لحماية أحد ، وحدود التبعات واضحة حيث يعمل الشيطان

وحيث لا يعمل ، فهو لا يحمل عن شريك من شركائه تبعة وزر من أوزاره ،
ولا يدارى حماقة الغافل الذى ينقاد إليه .

وفى القرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة على علمهما بغواية
الشیطان (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من
الخاسرين » .

وكلما ذكرت فى القرآن الكريم غواية إبليس ذكر معها أنه ما كان
عليهم من سلطان ... « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

وكذلك تقول الشياطين لمن يرجع إليها بذنبه « وما كان لنا عليكم
من سلطان بل كنتم قوما طاغين » .. « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون
ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » .

ولا ينفع من ضل أن يعتذر من ضلالتة بوسواس الشيطان . فان
الشیطان ينكره ويبرأ منه . « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر
فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين » .. « وقال
الشیطان لما قضى الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم
وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى
ولوموا أنفسكم » .

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الإنس . ، فان
الشیطنة هى عداوة الحق حيث كانت : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا
شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » .

بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر إلا أنه خداع
للحس وفتنة للنفس تخيل إلى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة فى غير
وهمه : « .. يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت
وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون
منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن

الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق » .

وفي سورة سبأ عن جنود الجن التي جهلت موت سليمان وهو قائم أمامهم « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

وإنما المسحور كالمخمور مخدوع الحواس « إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

« يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

« ولا يفلح الساحرون » .

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الجن الذين يعملون للانسان باذن الله ومنهم جنود سليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » .

وفيه ذكر الجن التي تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر الجن التي تسترق السمع من السماء ، وذكر الجن التي تقارن الإنس ، وذكرت الجن والعفريت الذي تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكته لم يذكر لها في مجال التكليف عملا قط يسقط عن الإنسان تبعته أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئة ، ولا يستعاذ فيه من شر يأتي به الجن إلا وهو كذلك من الشرور البشرية ، أو من الوسواس الخناس « الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » .

وعلى هذه الصفة تروى تبعات الخطيئة حيث رويت في قصة آدم وما بعدها من قصص الأولين .

وقد رويت قصة آدم في مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، ورويت تبويته من عمله أو قوله في بعض هذه المواضع ، وهي جميعا مآل التكليف

الذى يفرض على الإنسان : يسأل عن خطيئته وأن وسوس له الشيطان ،
وتحسب له توبته وإن كانت بهداية الله .

« وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم . قلنا أهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وبجاءت فى سورة الحجر حيث يفاضل إبليس بين خلقته وخلقة آدم :
« والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، وإذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزین لهم فى الأرض ولأغويتهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقیم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين » .

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح الغربيين عن معنى .

الشجرة التي أكل منها آدم في الدين الإسلامي ، وقال بعضهم إن القرآن تركنا في حيرة من أمر هذه الشجرة ، ما معناه وماذا جناه آدم وحواء من جراء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ، وليس في الأمر ما يدعو إلى التساؤل ولا إلى الحيرة ، لولا أن هؤلاء الشراح وضعوا في أذهانهم معنى معلوما وأرادوا أن يجدوه في القرآن فلم يجدوه كما أرادوه . إذ لا يخفى على الناظر في القصة أن ثمرات هذه الشجرة هي ثمرات « التكليف » بجميع لوازمه ونتائجها ، وما كان الفارق بين آدم قبل الأكل منها وبعد الأكل منها إلا الفارق بين الحياة في دعة وبراءة والحياة « المكلفة » التي لا تخلو من المشقة والشقاء والامتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب ، وكلما تكررت القصة في الآيات القرآنية كان في تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبدو ذلك جليا من المقابلة بين ما تقدم وما جاء عن هذه القصة في سورة الأعراف ، وذاك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، أو اعطاء الصورة بعد اعطاء الوجود ، ثم تمضي القصة على ما يلي :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إناك من الصاغرين ، قال أنظرني إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ، قال فما أغويتني لأعقبن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذموما ملجأ من تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما

الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما انه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم . إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف في هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغنى عن خطاب بنيه وأعقابيه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وكلفته لا تلزمهم وتوبته لا تغنى عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على الأحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكلدحون وحيث يموتون .

ويميل الشراح الغربيون إلى النقد كلما وجدوا له ندحة في قصص القرآن ولا سيما هذه القصة ، وآخر من وقفنا على نقد له من هذا القبيل «بابيني» الايطالى صاحب كتاب الشيطان ، فانه يستغرب أن يؤمر إبليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن في تحريم الشرك وتنزيه الوجدانية الإلهية ، ولكن المطلعين من الشراح الغربيين على اللغة العربية يفهمون معنى السجود هنا ولا يخرجون به عن معنى التحية والإكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لانه يريد أن يرجع بعقائد الإسلام إلى الأصول الإسرائيلية كما فعل تورى Torrey في كتابه عن أسس الإسلام من التراث اليهودى ، ولم يكن في التراث اليهودى ذكر لغير الحية في هذا المقام ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعا في التفرقة بين الضرر والشر أو بين الشر الحيوانى والشر الأخلاقى كما قدمناه .

* * *

وقليل من النقاد الدينيين في الغرب من يفتن للمخاصة الإسلامية الأخرى التى تتمثل في قصة آدم مع الملائكة والجان ، فان الغالب عليهم .

أن يتكلموا عن زلة آدم فيسموها « سقوطا » ويرتبوا عليها ما يترتب على السقوط الملازم لطبيعة التكوين ، وليس في القرآن أثر قط للسقوط بهذا المعنى في حق كائن من الكائنات العلوية أو الأرضية ، فليس فيه شيء عن سقوط الإنسان وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، أو من عهد البراءة والدعة إلى عهد التكليف والكلفة ، وليس فيه شيء عن سقوط الملائكة وانحدارهم من طبيعة عليا إلى طبيعة دونها من طبائع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين ما يعزى إلى الملك ويعزى إلى الشيطان من ضروب السحر المباح أو السحر الحرام : « واتبعوا ما تلتوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر .. » .

فالملك الذي يعرف السحر لا يخدع به أحدا ولا يعلم من يريد أن يتعلم إلا أن يطلعه على حقيقته ، وليس الخداع ولا الاضرار بالعلم من طبيعة الملك بل من طبيعة الشيطان .

* * *

هذه القصة بعينها — قصة هاروت وماروت — يطول فيها الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن أصولها ، لأن شراح التلمود من اليهود يعتسفون الأقوال والشواهد لردّها إلى المصادر الإسرائيلية ، وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغير اليهود ينفون العلاقة بينها وبين تلك المصادر فمن الذين ردوها إلى المصادر الإسرائيلية من يرى أن الملكين هما أريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتاب أدريس ، ويستند صاحب كتاب أساطير اليهود إلى مراجع كثيرة لتصحيح هذا الخطأ وترجيح مصدرها الفارسي (١) ...

وينزعم جيجر Geiger أنهما الملكان شمهاري وعزائيل اللذان هبطا إلى الأرض في عهد نوح فتزوجا من بنات الناس ووجدتا أنهما « حسنات » كما نجاء في سفر التكوين ، ويعتمد جورج سيل مترجم القرآن على تحقيقات

(١) ص ١٦٠ من الجزء الخامس من مجموعة جازبرج .

هايد Hyde في تصحيح هذا الخطأ والرجوع بها إلى أصل بابلي كما جاء في القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هذه القصة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الأسماء ومخالفته أمر ربه بغواية الشيطان ، وهي القصة التي يحسبها بعضهم من الأخبار التلمودية ، ويقول ابشتين وجرنبوم أن التلمود اقتبسها مباشرة من المراجع الإسلامية وبطريق غير مباشر من المراجع المسيحية .

غير أن هذه المناقشات جميعا يعتمدها النقص الشامل لتحقيقات النصوصيين والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف واغفال الجوهر الذي من أجله استحدثت القصة أن تكون موضع اهتمام ومناقشة في مباحث المقارنة بين العقائد والديانات ، فليست المسألة في هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها مسألة القيم الروحية التي ترتبط بها وتتغير مع الزمن حسب تفسيراتها ولو بقيت بنصها وحرفها في الروايات المتعاقبة .

وجوهر المسألة كله في القصة التي نحن بصدددها أن القرآن الكريم لم يذكر قط شيئا عن سقوط الخليفة من رتبة إلى رتبة دونها ، ولم يذكر قط شيئا عن سقوط الخطيئة الدائمة أو سقوط الخطيئة التي يدان فيها الإنسان بغير عمله ، إذ العقيدتان — كلاتهما — غريبتان عن روح الدين الإسلامي كل الغرابة ، ولا يعترف الإسلام بإرادة معاندة في الكون لإرادة الله يكون من أثرها أن تنازعه الأرواح وتشاركه في المشيئة وتضع في الكون أصلا من أصول الشر وتسقط الخلائق التي ارتفعت سوية بمشيئة الخالق . فقد جاء الإسلام بهذه الخطوة العظمى في أطوار الأديان فقرر في مسألة الخير والشر والحساب والثواب أصبح العقائد التي يدين بها ضمير الإنسان ، وقوام ذلك عقيدتان : أولاهما وحدة الإرادة الإلهية في الكون ، والثانية ملازمة التبعية لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربّه .

فليست الخطيئة في الإسلام أصلاً كونياً يعاند الإرادة الإلهية بإرادة. مثلها أو مقاسمة لها في أقطار الوجود العليا والسفلى ، ولكنها اختلاس وخلل وتقصير ، وله علاجه من عمل العامل نفسه بالتوبة والهداية أو بالتكفير والجزاء ، ولما كانت فضيلة آدم على الملائكة والجن انه تعلم الأسماء التي لم يتعلموها ، كانت هدايته إلى التوبة كذلك بكلمات من المعرفة الإلهية ولم تكن بشيء غير عمله وقوله .

فاذا فهمت العقيدة الإسلامية على هذا الوجه فهذه هي القيمة الروحية التي تجرى المقارنة والموازنة عليها كائناً ما كان القول في تشابه الأسماء والقصص وتوافق المراجع والأسانيد ، وما من دين قط خلا من الأسماء والقصص التي سبقته إليها الأديان المتقدمة عليه في تاريخ دعوتها ، وليس أكثر من الأسماء البابلية والفارسية في كتب العهد القديم وكتب التلمود ، وليس أكثر من هذه جميعاً في المراجع المسيحية ، وإنما العبرة بالقيمة الروحية التي تناط بها في مسألة واحدة قبل كل مسألة يتناولها الإيمان ، وتلك هي مسألة الخير والشر والتبعة والجزاء ، ولا خلاف — مع فهم هذه المسألة — على فضل الإسلام في هذه السبيل .

* * *

ان الأديان الكتابية لم تتعاقب عبثاً ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها . فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية فلبثوا زمناً يخلطون بين فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر ، ولبثوا زمناً أطول من ذلك يخلطون بين الوجدانية في الوجود كله وبين الوجدانية التي تميزهم بآله لا يقبل المشاركة من الأرباب الأخرى ، كأنهم شركاء المنافسة والمناظرة بغير حق وبغير قدرة .

ثم جاءت المسيحية ففصلت بين الخير والشر بفواصل كبير ، وحققت معنى الخير الزوحي الذي يفضّل من معنى المنفعة والسلامة ، وباعدت بين العاملين وتركتهما من بعدها كأنهما دولتان تتقابلان ، هذه في السماوات

وهذه في الأرضيين ، وتكاد الأرضية منهما تبسط يدها إلى حوزة الأخرى وتأخذ منها إلى حوزتها معقلا يسترد ويستعاد ، ولا يملك الإنسان فيه حيلة أمام الإله وأمام الشيطان ، وإنما يحىء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الإله .

ثم جاء الإسلام فبسط على الوجود كله وحدة لا مثوية فيها على وجه من الوجوه ، ومنح الإرادة الانسانية حقها وتبعثها وجعلها ظالمة لنفسها إذا سمحت للشيطان أن يظلمها ، فانما هو خداع وضعف ، وإنما هما طريقان بينان لا يخدع عنهما سوى المأخوذ أو المسحور ، إلا أن يؤثر الضلالة على الهدى ويصر على ضلالتة بين دواعي التوبة والندم .

فهذه الديانات لم تتعاقب عبثا ولم يكن لها في أطوارها سبيل أقوم من هذا السبيل ، ولو نظرنا إليها فرضا وتقديرا ولم ننظر إلى وقائع التاريخ .

* * *

وكل ما تقدم إنما يتبين لنا من العقائد الإسلامية كما نتلقاها من القرآن الكريم ، وقد أحسن فهمه مفسرون وأساء فهمه مفسرون ، ولعله لا ينصف العقائد الإسلامية شيء كما ينصفها في هذا المقام أن نرجع إلى المسيئين فزأهم جميعا قد أساءوا فهم كتابهم لأنهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسبوها سندا محققا عند أصحابها الأولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يثقفونها ممن تقدمهم لأنهم لم يفهموا كتبهم فالتسوا فهمها بمعونة من تلك الأحاديث .

* * *

وليس من عملنا هنا أن نستقصى أقوال المفسرين في شئون الغيب ، ولكننا نلخصها اجمالا فيما نحن بصددده من طبيعة الشيطان وطبائع الخلائق العلوية كالملائكة والأرواح . فأضعف الأقوال أن الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوى الذى يفيد معنى الخفاء ، وأرجحها

القول الذى أخذ به الفيلسوف الرازى فى تفسيره حيث يقول : « لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء آياكم كانوا يعبدون : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ، وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملائكة ... » .

ولا حاجة بنا إلى اسهاب أو إيجاز فى نقل أحاديثهم عن الجن وأسمائها وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على اغواه ونخطله ليس له أساس بما نعنيه فى هذا السياق .

عبادة الشيطان

تخلفت — بعد الأديان الكتابية — نخلة تتسم بالشذوذ المطبق في جميع أطوارها . لأنها شاذة في موضوعها ، وشاذة في انتسابها إلى أصولها ، وشاذة في تليفق مقوماتها وأركانها ، وشاذة في وسائل نشرها والدعوة إليها .

موضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان .

وانتسابها إلى أصولها شاذ لأنها تأخذ من الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الأولى والأديان الكتابية .

وجميع مقوماتها وأركانها شذوذ في شذوذ ، لأنها تجمع النقائص في شعائرها وتعمل أحياناً على مرضاة الشيطان ومرضاة الإله الأعلى بفريضة واحدة .

ووسائل الدعوة إليها شاذ لأنها سرية يبالغون في كتمانها مع امتداد معابدها في آسيا الوسطى إلى أوروبا الغربية وأفريقية الشمالية ، ويعجب الناظرون في أمرها من الذي يتولى نشرها وما بواعثه النفسية أو القومية التي تحضه على نشرها ، وهي مع الأديان الأخرى بين موافقة تأباها تلك الأديان ومناقضة تثيرها عليها .

* * *

ومن العسير أن توضع هذه النحلة في نسق منتظم مع تطور العقائد في مجموعة الأمم الإنسانية ، واكتنا نحاول وضعها في مدرجة من هذه الأطوار جهد المستطاع ، مع ملاحظة الأصول الجغرافية والعنصرية . فمن الراجح المعقول أن عبادة الشيطان تنتمي قديماً إلى الشعور بقوة الشر في البيئة التي نشأت فيها وأحاطت بها .

ومن الراجح المعقول أيضاً أن الشعور بقوة الشر قد كان على أشده، حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخيانة ، وجعلوا لإله الشر حصّة في الكون مساوية لحصّة إله الخير أو قريية منها ، وتلك هي الثنوية « الزردشتية » منذ أقدم أطوارها .

وينبغي أن نذكر أن الثنوية كانت تفرض لإله الشر في بعض الأزمنة سلطاناً أكبر من سلطان إله الخير في العوالم الأرضية ، وتسوغ هذا الفرض الغريب بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فانور والخير منفردان بالسماوات العليا ، والظلمة والشر غالبان على الأرضين السفلى. إلى الموعد المعلوم ، ثم يتفهم هذا السلطان في العالم الإنساني ليخلفه سلطان الخير أبداً بدين .

قامت هذه العقيدة قديماً في أرض فارس على تخوم السهوب الآسيوية ، حيث لا تعرف العشائر المترحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال في كل رحلة من رحلاتها عرضة لعصف الثلوج والحرور وفتك السباع والأفاعى ونكبات القحط والطوفان ، ولا تأمن في طريقها ما لم تكن على هوى الشيطان .

ولم يكن هوى تلك العشائر في حياتها الأولى مخالفاً كل المخالفة لهوى الشيطان في عنفه وعسفه أو في كيدته أو ختله أو في اندفاعه مع شهواته وأطماعه ، فكانت تنساق لأهوانها حين تزعم أنها تنساق لأهواء الشيطان .

في تلك الأرجاء تأصلت العبادة الثنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهي عبادة الأرواح والشياطين .

ففي بلاد العمار — أو بلاد الحضارة الفارسية — تهيأت الأذهان للعقائد الكونية الواسعة فتأصلت الثنوية وعلمت الناس أن الشر غالب على الأرض ولكنه مغلوب بعد حين ، وأن « أهريمان » رأس الأرواح الخبيثة نافذ السلطان في عالم الإنسان ..

وفي السهوب المقفرة تأصلت الشامانية وشعائرها التي لا تفصل بين الكهانة والسحر بفواصل محدود ، فقد يكون الروح الواحد طيباً هادئاً إذا رضى واستراح إلى مقامه واستوفى مطالبه من فرائسه وضحاياه ، وقد يكون خبيثاً عارماً يتعبط فريسته فلا تجدى عنده شفاعاة الكاهن الساحر أو يثوب إلى السكينة بمحض هواه .

* * *

لما ظهرت المسيحية كانت الثنوية والشامانية على أقوى ما كانتا عليه قبل الميلاد .

ونشطت مع المسيحية في مجال واحد عقيدة ثنوية حملها جنود الرومان من تخوم الهند إلى الجزر البريطانية ، وهي عقيدة « مترا » بطل النور الذي استشهد في حربه لإله الظلام ، ووعد عباده بالعودة إليهم بعد حين مظفراً متمكناً من الأرض والسماء ما دامت الأرض والسماء . وانهزمت عقيدة « مترا » أمام المسيحية .

ولكن هزيمة العقيدة المترية لم تقتلع الثنوية من جذورها ، ولم تكن أحوال العالم في القرون الأولى بعد الميلاد مما ينسى الناس وطأة الشر وسلطان الشيطان ، ولم تكن المسيحية في دعوتها تنفي غلبة الشيطان على العالم وانقياد السادة المسيطرين على الأمم لوساوسه ورذائله ، فتهجمت من بلاد الثنوية نحلة أخرى تسمى المانوية منسوبة إلى « ماني » الذي ولد في بابل الجنوبية حوالي سنة (٢١٦ للميلاد) واستهل دعوته في إبان قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثاني « سابور الأول » نصير قوى أيام حكمه ، على أمل منه في توحيد النحل المجوسية على قواعد الدين الجديد ، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع ماني أن يصمد لأقطاب النحل الأخرى بعد حكم سابور ، فألقى في السجن حيث مات وهو يتأهز الستين ، ووسم أتباعه باسم الزنادقة أي الكذبة المنافقين ، وقيل عنهم أنهم « أهرمانيون شيطانيون » .

إلا أن « ماني » كان من المجددين في عقائد قومه وفي ثقافتهم وفي كتاباتهم الأبجدية ، ومن مساعيه في تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرامية

وتنقيح أوزان الشعر والأناشيد المقدسة وتقريب مذاهب المعرفيين Gnostics إلى مذاهب المجوسية والمسيحية وتحقيق الخلاص الروحاني من طريق الحكمة والتعمق في أسرار العلوم .

ولم يخرج ماني من نطاق الثنوية في آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهبيه ثنوية « زردشتية » أو مجوسية ، وقليل منه مقتبس من آراء المعرفيين وعقائد المسيحية في الصدر الأول قبل أن يتوسع فيها الآباء المتأخرون .

فالوجود من أزل الآزال وجودان منفصلان : عالم النور وعالم الظلام ، ولا فاصل بينهما يمنع أحدهما أن يبغي على الآخر إذا شاء ، ولكن عالم النور لا يعرف البغي بل يعرفه رب الظلام حسداً لرب النور ، فيزحف بجنوده كرة بعد كرة ويأبى رب النور أن يقابل العداء بالعداء لأنه بطبيعته محبة وسلام وحسبه أن يتجلى حيث شاء فيجفل منه الظلام .

ولما تكررت هجمات رب الظلام على العالم النوراني يحاول أن يكمن فيه وينزع منه ما استطاع ،خلق رب النور آدم السماوي وأرسله إلى الأرض بمزيج من طبيعة الملك العلوي والحيوان الأرضي ليلقى جنود الظلام في ميدان القتال ، وكان آدم هذا — أو جايومارث كما يسميه المجوس — طيباً سليم القلب يحارب شريراً مزوداً بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع في أسر الظلام ولم يجد رب النور بداً من الهبوط بنفسه إلى الميدان لإنقاذ مخلوقه الأثير لديه من غياهب العالم السفلي ، فأنقذه ورفعته إلى الشمس حيث يقيم بعيداً من الأرض وعالمها المههد بغزوات الشياطين .

إلا أن الإله السفلي عرف من تركيب جايومارث سر الآدمية العليا فصنع على يديه « آدم » آخر يمتزج فيه الخير والشر والروح والجسد ، وذلل آدم حائراً بين طبيعته حتى أشفق الإله السماوي عليه فأرسل إليه المسيح ليبدله على أشرف طبيعته ويعلمه الغلبة على أخس هاتين الطبيعتين ، فجعل آدم ينادى منذ ذلك الحين : « ويل لمن خلق جسدي واستبعد روحي » ونحلاته حواء فهبط بها الملائكة إلى الجحيم ومعها ذريتها من أبناء الشياطين

ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء إلا أن يستخلصوا
العوالم النورانية من شوائب الظلمات ، ثم ينفصل العالمان ويقضى على العالم
السفلى بالدمار .

سرى هذا المذهب المانوى شرقاً إلى الصين والهند وغرباً إلى افريقية
الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة خلق الشيطان للبشرية
وسيادته على العالم الأرضى وبقائه متسلطاً عليه إلى اليوم الأخير .

ووافق ذلك السريان النحلة الشامانية بين أواسط آسيا وأوربة الشرقية ،
فدخلتها المسيحية وعشائرها مؤمنة بالسحرة والشياطين تتسامع بأن إله
المسيحيين ترك الأرض للشيطان الأكبر فلا حيلة لها معه غير أن ترضاه
وتزدلف إليه ، وقد بقيت المسيحية الصحيحة مجهولة في تلك الأقطار
إلى ما بعد القرن الثانى عشر ، وبقيت نحلة « البوجوميل » — أى النحلة
الشيطنانية — غالبة على عشائر البلغار والعشائر البلقانية عدة قرون .

ومع المانوية والشامانية نحلة أخرى — أو نحل شتى على الأصح —
تعرف باسم النحل الأورفية Orphism وتشترك في المراسم الخفية التى
تعاقب فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلو فيها اسم ديونيسوس Dionysus
الذى يعتقد اليونان أنه ابن زيوس رب الأرباب من بيرسفون وأنها حملت
به منه وهو متنكر في صورة الحية ، فقتله المردة واستخلصت الربة « أثينا »
قلبه فهو القلب المقدس الذى كان أصحاب النحل الأورفية يحتفلون به
ويتخذونه رمزا للأهواء والآلام .

ويعتقد الأورفيون أن الإله أورفيوس يهذى صحابته في ظلمات العالم
الأسفل بعد الموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى
المعروف في الديانة المصرية القديمة .

وظاهر من صور الشيطان التى شاعت بين الأوربيين المشاركة
في صدر المسيحية أن عباده يقرنون بينه وبين ديونيسوس صاحب التجلى
الأعظم في حفلات الخمر والحجون ، وكانوا يتقربون لديونيسوس بجدى يربونه .

لهذا الغرض ويصهرونه — أى ديونيسس — فى صورة « الساتير » الذى يتزيا بجلد المعز ويلبس قرونها على جبهته ويجر وراءه ذنبا طويلا كأذناها ويمشى بقدمين لها ظلفان مشقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان فى محافل عباده الأولين .

ومع المانوية والشامانية والأورفية ينتشر المعرفيون من بلاد فارس إلى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص إلى النور من طريق الظلام ، والخلاص إلى الطهارة من طريق الرجس ، والخلاص إلى الله من طريق الشيطان ، والخلاص إلى المعرفة من طريق الجهالة بمعانيها جميعاً فيما اشتملت عليه من جهالة العقل وجهالة الطباع .

هذه فلول العقائد التى تجمعت منها نحلة الشيطان وطال بها الزمن قبل شيوع المسيحية فى دور النزاع بين بقايا الأديان الوثنية وطلائع الدين الجديد ، ويؤخذ من ألقاب الشيطان فى بعض اللغات الأوربية الشرقية أن المظالم الاجتماعية كانت بعض أسباب الكفر بالإله السماوى والإقبال على عبادة الشيطان المتمرد الذى يناوئه ويعان الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان « نصير العبيد » وكانوا يحسبون أنه ضحية القضاء الكونى الذى هم ضحاياه .

* * *

ولم يكتب عباد الشيطان أسرار عبادتهم ، لأنهم كانوا يكتُمونها حذرا من خصومهم ويكتُمونها مجارة لطبيعة العبادة « الشيطانية » التى لا غنى لها عن الظلمة والخفاء ، وما رواه عنهم خصومهم لا تتفق فيه روايتان على جميع التفاصيل ، ولا نخال أن عبادات الشيطان كانت متفقة بينها فى أماكنها المتباعدة بين آسيا الوسطى وأوربة الغربية . فان العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتنازع حين تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الأقاليم والسلالات واللغات والأحوال الاجتماعية والنفسية ، فلا يجرم تختلف العبادات السرية إذا باعدت بينها مسافات كهذه المسافات . إلا أن المشهور من نحل انعبادة الشيطانية ثلاث ، هن الكاثارية

والبوجمولية والألبية ، ويرجح المؤرخون لها أنها أسماء مفترقة لنزعة واحدة تختلف في التسمية حسب علاقتها المحلية ، مع وحدتها في مصادرها والتقاء مصادرها جميعاً في الرقعة الوسطى بين القسارتين الآسيوية والأوربية . غلبت الكاثارية على العشائر الألمانية ، واسمها مستعار من كلمة Gathar بمعنى الطهارة في اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكانت في أصلها نحلة زهد ورهبانية ثم انحرفت قليلاً قليلاً إلى خليط مون الوثنية وبقايا الديانات المتخلفة من الحضارات الأولى .

وغلبت البوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها مأخوذ من السلافية بمعنى أحباب الله ، أو مأخوذ من اسم داع مشهور من دعائها حولها من العبادة الصريحة إلى عبادة الخفاء Bogomil .

وغلبت الألبية Albigenses على فرنسا الجنوبية ونسبت إلى « ألبى » Alb التي كان مركزها الأشهر في غرب القارة وجنوبها .

ولم تتفق هذه النحل في شعائرها وعقائدها كما أسلفنا ، ولكنها تتفق في قاعدة مشتركة بينها وهي قاعدة الديانة المانوية ، فكلها مانوية تضاف إليها حواشي الوثنية المحلية والمقتبسات المشوهة من العقائد المسيحية ، ولا تخلو عباداتها جميعاً من إباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التي تخالف بها جميع الأديان الكتابية ، وإن لم يكن بينها وفاق شامل للمحرمات والمباحات .

فمنها ما يحرم الزواج لأن الزواج يستتبع النسل في عالم الشر والفساد ولكنه لا يحرم الفسق ولا الشنوذ ، بل يدخلهما أحياناً في الشعائر المفروضة لأنهما يرضيان الشيطان .

ومنهما ما يحرم اللحم والجبن والبيض وكل ما جاء من تناسل بين ذكر وأنثى ، ولكنه يبيح السمك لا اعتقادهم أنه لا يولد بالتلاقح بين الجنسين .

ومنهما ما يزعم أن آدم طلق حواء وتزوج بالربة البابلية التي تسمى ليلى أو ليلى ، وأن حواء تزوجت بعده بمارد من الجن فجاء النوع الإنساني خليطاً من الآدميين والمردة وذرية الأرباب الوثنية .

ومنها ما يقدره المسيح وينكر الصليب ، ولا ينكرونه لتكذيبهم
صلب المسيح ، بل لأنهم يقولون « ان ما من أحد يعبد المشنقة التي
خنقت أباه ! » .

واشتهر من عباداتهم عبادة القديس الأسود ، ومحورها صورة
الشیطان عارياً وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين اليه وتنقل اليهم « البركة »
بلمس أعضائه ، وتنتهي الصلاة بضروب من الإباحيات كالتى كانت
تقترف في عبادات أرباب النسل عند الوثنيين .

وكل جماعة « سرية » ظهرت في القرون الوسطى فهي على صلة بطائفة
من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التي سميت باسم الميكلين والجبليين ،
وكان هؤلاء يتقلدون حبلاً قصيراً ويلبسون قميصاً يسمونه الكميسية (Gamisia)
ويقال أنهم نقلوا الاسم من جزيرة مالطة التي كانت معقلاً للهيكلين وكانت
الكلمات العربية شائعة في لغتها منذ القرون الوسطى ، ولا تزال كذلك
إلى اليوم .

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنوع مذاهبها ، هي سيادة
سلطان الشر على العالم الأرضي خاصة وتنازع الكون بين القوة العليا والقوة
السفلى ، وضرورة « التفاهم » مع الشيطان في أمور هذه الدنيا أو ضرورة
هذا التفاهم في كل أمر من الأمور ، لأن إله الخير على قوته وحكمته قد رفض
يديه من دنيا بنى آدم لاجوجاجهم ودخيلة السوء في طباعهم باختيارهم
لا بدسياسة عليهم من قبل الشيطان .

وقد بقيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الأوروبيين الغربيين ، وسبق
ثلاثة وستون رجلاً وامرأة إلى محكمة التفتيش في طولوز (يونية سنة ١٣٣٥)
فقالت إحداهن آن ماري جيورجل « ان الله ملك السماء والشیطان ملك
الأرض ، وهما ندان متساويان سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة وينفرد
الشیطان بالنصر البين في العصر الحاضر » (١) .

(١) القديس الشيطاني تأليف رودس The Satanic Mass by Rhodes

ويتقل رودس صاحب كتاب القديس الشيطاني نبينا من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه Michelet يفهم منها أن هذه العبادات قد امتزجت زمننا بالثورة الاجتماعية وانهلال الأخلاق وفتور الإيمان بالدين ، فقد كان القديس الأسود صلاة إلى الشيطان ينادونه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيها بوظيفة الكهانة فتاة عارية تمعن في الرقص حتى يأخذها الدوار ، ثم يتصدى من الجمع أحد الرجال المندوبين للعبادة فيتم الصلاة باتخاذ دور الشيطان واعتبار الفتاة محرّاباً حياً للمعبود (١) .

* * *

وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لاشك أنها كانت أطول مما يتاح لها لو لم يكن لها سند من الحوادث غير مزايها الخلقية أو الوجدانية ، ولكنها استفادت من تنازع الكنائس وانهلال الدولة الرومانية وغمارات الممّج وما اقترنت به من السبي والسلب والإباحة ، واستفادت من مظالم المجتمع وجهالة المؤمنين بالسحر وسلطان الشيطان على المقادير الأرضية ، فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والخذر من الجماعات المتسرة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه باستخدام تلك الجماعات في محاربتة والدس عليه ، تألبت القوى على جميع تلك النحل وأخانتها الكنيسة والدولة معا بالقمع الشديد والرقابة المتلاحقة ، فلم تبق لها بقية بعد القرن السابع عشر ، إلا إذا صحت الإشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التي كانت تستتر باسم الماسون فيما رواه الصحفي الفرنسي جوكاند Jogand وأثار حوله حملته التي سماها الشيطان في القرن التاسع عشر ، ولم تقم عليها البيئة القاطعة بعد البحث في أسانيدها ودعاواها .

* * *

أما النحلة التي ينسبونها إلى الشيطان ولا تزال لها بقية في العصر الحاضر فهي النحلة اليزيدية التي تقيم في شمال العراق وينتمى أبناؤها جميعاً إلى الكرد ولا يعرف أحد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال

أحد علمائهم أو جهلائهم لأنهم يحرمون التعليم على عامتهم ويجعلونه وقفاً على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الأسرار في هذه الديانة ، فمن كان منهم عالماً بتلك الأسرار فهو لا ييوح بها ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يتلقى ما يسمعه ويؤذن له بعلمه ، وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون خباياها سواء منهم من أباحوا له العلم أو حرّموا عليه .

ويرجع بعض الباحثين بالاسم إلى يزيد بن معاوية ، ويرجع آخرون به إلى مدينة يزد الفارسية ، ويرجع به غيرهم إلى اسم يزدان الإله الأقدم في الملة المجوسية ، وغير بعيد أن يكون الاسم منسوباً إلى يزيد ، الخليفة الأموي ، لأن النزاع بين الكرد والفرس قد فرق بين عصيانهم في السياسة وفي الدين ، فكان الكرد من غلاة السنيين إذ كان الفرس من غلاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التي تؤله « يزيد » في صورة الإله الأرضي مقابلة للطائفة الفارسية التي عرفت باسم « على الإلهي » لأنها تغلو في حب الإمام على رضي الله عنه إلى حد العبادة .

تؤمن الطائفة الزيدية بسبعة آلهة خلقت من نور إله واحد كما تضاء الشمعة من الشمعة ، وقد خلق كل منهم في يوم من أيام الأسبوع وندبه الإله الأكبر لإبداع جزء من العالم الأعلى أو العالم الأدنى ، وهم يعتقدون أن الله خلقهم من نطفة آدم غير ممزجة بجسم حواء ، خلافاً لسائر البشر ممن ينتسبون إلى آدم وحواء ، ولعلمهم أخذوا معتقداتهم هذه من المانوية أو من المعرفيين الذين يرون في أساطيرهم أن آدم طلق حواء فأسلمتها الأرباب إلى شياطين الجحيم ، وعندهم أن آدم هذا هو آدم الحادي والسبعون ، كلهم ذهبوا بالمعصية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح غير ذرية آدم من صلبه دون مخالطة المرأة ، وهم الزيديون .

ويعتقدون بتناسخ الأرواح وعودة الأشرار إلى الحياة في أجساد الحيوان ، ويحرمون ألواناً من الأطعمة والأكسية لا يعرفون علة لتحريمها غير التعلات التي هي أشبه بأحاجي الإقاصيص ، ومنها تحريم أكل الخس

لأن قديسيهم الشيخ عادى مر به فلم يعرفه وسأل عنه فلم يجبه ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلى لأنه عدو السماء .

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون إلى جبل الدروز كما يحجون إلى مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب يسمى مصحف رش أو المصحف الأسود ، ولكن الفصل الثالث من كتاب الجلوة يعلمهم أن الله يرشد بغير كتاب ويخص عباده المقربين بالإلهام من غير سماع .

وليس فيما رواه الثقات عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول بعبادتهم للشيطان لبس جاء من اعتقادهم أن الإله الذى يسمونه « طاووس ملك » نصح لآدم بأكل الحنطة فانتفخ بطنه وضاعت به الجنة فأخرج طاووس ملك العراء وصعد إلى السماء ولم يكن لآدم مخرج فأرسل إليه طائراً نقر بطنه فاستراح من أكلة الحنطة ، وعاش بعيداً من الجنة المطهرة يأكل هو وبنوه من ذلك الطعام الأرضى إلى يوم القيامة .

فالذين سمعوا أنهم يعبدون « طاووس ملك » الذى أخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا الملك وبين الشيطان وحسبوه من النحل الشيطانية التى تعبد عبادة الأرباب .

على أننا نعرض النحل الشيطانية جميعاً فلا نرى نحلة منها تعبد الشيطان بالمعنى المفهوم من العبادة وهو الحب والتزيه والتسليم ، وإنما يقصدون بتلك المراسم التى يسمونها العبادة أن يزدلفوا إليه بالترضية والمداراة ، وأن يثقوا منه الشر الذى لا يقيمهم منه رب سواه ، لأنه موكل بحكم الأرض إلى اليوم المعلوم . فهى مصانعة خوف أو نقمة على الخير الذى لا ينالونه ، وليس فى شعائر هذه النحل أثر واحد يحق لنا أن نطلق عليه اسم العبادة حيث نعنى بالعبادة إيمان الحب والتعظيم والرضى بالقداء والبلاء فى سبيل ذلك الإيمان فليس فى تلك الشعائر كافة علامة على قبول القداء فى سبيل العقيدة الشيطانية أو قبول الامتحان والصبر عليه إثارة لرضى الإله المعبود ولو لم يكن فيه

نعمة أو هبة من هبات الدنيا والآخرة ، وكأنما كانت « عبادة الشيطان » .
تهمة جرت على ألسنة المنكرين لعقائدهم زراية بهم وضناً عليهم أن يحسبوا
في زمرة « العباد » المؤمنين بالله .

وإذا كان الفساد شرطاً من شروط العبادة الخالصة فما من نحلة
شيطانية يتقبل المؤمنون بها أن يخسروا كثيراً أو قليلاً في سبيل الشيطان ،
فهى مساومة وانتفاع بالواقع الذى لا مهرب منه ، ومثل هذه المساومة
لا تسمى بالعبادة إلا من قبيل المجاز والتمثيل .

حُلفاء الشيطان

يدل تاريخ السحر على تضامن النوع الإنساني في التهدى إلى العقائد العميقة التي تعرب عن نظرة شاملة إلى الحياة أو إلى الكون كله ، وتبدو أفكار الناس في هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها ببداهته وتخيله وبذهنه وحسه وتتقارب فيه ملكة التشخيص والرمز في وعي الإنسان الساذج وملكة التجريد والتعميم في تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير .

لو قال قائل في هذا العصر أن الكون كله فكرة ، أو أنه كله عدد وحسبة رياضية ، لما احتاج في قوله هذا إلى تعمق بعيد ولا ظهر منه أنه يشتط في نزعات التصوف أو نزعات التجريد ، لأن الخاصة والعامة في زماننا يسمعون أن المادة كلها على اختلاف عناصرها وتراكيبها وأجسامها إنما هي ذرات تتألف من النواة والكهرب وأن الذرة حين تنشق تؤول إلى شعاع ، وأن الشعاع هزات في الأثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج في تجريد المادة من تلك الكثافة أو تلك الصلابة التي كانت عنده وصفاً عاماً لكل مادة ، وكان الهواء عنده غاية ما يتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف ؛

لا يؤخذ العقل الساذج مأخذ الدهشة إذا سمع اليوم أن الكون كله عدو وأن طبيعة العالم المحسوس من طبيعة الفكر المجرد أو طبيعة المعنى الغنى عن التجسيم .

واكن كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع قبل نيف وعشرين قرناً أن الوجود كله عدد وأن « الكلمة » أصل كل شيء كما قال بعض فلاسفة اليونان نقلاً عن تقدمهم من الكهنة والمفكرين ؟

كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع باللوجس Logos لأول

مرة وحين سمع معها أو قبلها بالنسب الهندسية التي تفرق موجودات الكون المادى كلها فلا تندهض عن شيء سواها .

كان هذا كلاماً أشبه بالتخريف أو هو التخريف بعينه ، وظل أناس من المطلعين إلى عصر الذرة يسمعون فلا يصفونه بأكثر من أنه هراء ، ولم يكن قول من الأقوال أبعد في الشطط عند جمهرة الناس من إحالة هذه الموجودات إلى فكرة خالصة أو إلى عدد لا يعرفون معه ما هو المحدود .

وقد كان حقاً من الإعجاز في التفكير أن يستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرناً أن يشف تلك الشفافية بهذه الأجسام ذات الأوزان والأحجام .

كان إعجازاً لو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس إلى التفكير المجرد أو الصوفية الرياضية ، ولكنه في الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبيل ، وقد ننظر إلى خطواته القرينة عياناً إذا تذكرنا تاريخ السحر وفهمنا منه ذلك التضامن في البديهة الإنسانية بين ملكة التشخيص والرمز وملكة التجريد والتعميم .

كان الناس يفهمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين أنه يحرك الطبيعة وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل في القوى العلوية والسفلية عملها .

كان بتلك الكلمة يبطل الأحجام والأوزان ويجعلها في يديه كالهواء أو أخف من الهواء ، وكان يلتقي الكلمة أو يجمع العدد فيحرك الجبال ويزلزل الأوتاد ويطير بالأجسام وينفذ إلى ما وراء الحجاب ولا يتعد منه أو يتعسر عليه عسير .

ولم يكن أصحاب العقيدة في السحر فلاسفة يجردون الأجسام وينظرون من وراءها إلى الحقائق في العقل الإلهي أو في عقل من العقول العليا ، ولكنهم كانوا أناساً حسيين واقعيين يفهمون أن الساحر يعمل بالكلمة ما يعمل به كل منهم حين يأمر إنساناً مثله فيطيعه ، وغاية ما هنالك أن الساحر يأمر بالكلمة أرواحاً واعية وأن الطبيعة كلها أرواح .

غاية ما هنالك أن الساحر يعرف الكلمة التي تطيعها تلك الأرواح ،
وأنه هو — الإنسان الساذج — لو عرفها لحرك الجبال كما يحركها وزلزل
الأوتاد كما يزلزلها ، فلا تعمق عنده ولا تصوف ولا تجريد .

ولم إلى اليوم يستطيع الإنسان الساذج أن يقول ان الكلمة تفعل الأعاجيب
وتحكم الدنيا لأنها تحكم الإنس والجان ، ولكنه يقولها ولا يشعر بعمق فيها.
ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وإنما « تعمقها » الفلسفة لأنها تعطيها
المعنى الذي لا يقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن في البداهة الإنسانية
فعله فلا تبدو هذه النقطة كأنها الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين
الصوفية العقلية في أعلى الدرجات .

ولما فرق الإنسان الساذج بين السحر والعبادة لم يعتمد في تفرقه هذه
على مقياس الشعرة الذي استخدمه علماء العصر الأخير في مراجعة العقائد
وضم الأشياء منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق أو جليل .

ولكنه فرق بين السحر والعبادة غير عامد ولا ملتفت إلى فارق بينها
غير الفارق بين حالته وهو يذهب إلى الساحر وحالته وهو يذهب إلى إمامه
في العبادة ، وربما كان الساحر والإمام شخصاً واحداً ولكنه يشعر من
نفسه بالفارق بين حالته وهو يذهب إليه طلباً للسحر أو يذهب إليه طلباً
للصلاة .

فحينما ذهب إليه يطلب سحراً فهو يحس من نفسه أنه يذهب إليه خفية
ويستر عنده ما يطلبه ولا يبوح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن إليه ، وحينما
ذهب إليه يطلب صلاة فهو يذهب مع غيره ويعلن ما يفعله وما يرجوه
ولا يخطر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام .

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفته وخلقاً أصبح السحر عملاً من
أعمال الظلام وإن اختلف الأعوان عليه بين الأرواح الحبيثة والأرواح
الطيبة ، أو بين الأرواح التي يحكمها الشيطان والأرواح التي لا حكم له
عليها ولا يرجع إليه في تسخيرها .

ومع الزمن ظهر التخصص في صناعة السحر كما يظهر في كل صناعة تتفرع وتنشعب وتتميز فيها المتشابهات والمتحالفات ، فانقسم السحر إلى أبيض وأسود ، وإلى سحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين ، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة أنهم لا يقدرّون على صناعتهم التي لا شك فيها ، وإنما فهموا من هذا الوصف أنهم يحتالون في الصناعة ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة في الكذب أو الشعوذة من شيطان .

وبقيت « السرية » شرطاً ملازماً للسحر بنوعيه ، وبقيت هذه السرية معنى مرادفاً لمعنى الظلام وتدبيراً لا يؤمن على الذين يعتقدونه ولا يرونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أى وجه يكون : بقي الساحر مخيفاً غير مأمون : وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ولعن الكاهن غريمه ولم يستطيع غريمه أن يلعنه لأن الناس لا يصدقون لعنته ولا يرون اللعنة من حق الساحر وإن لم يكن سحراً من عمل الشيطان .

وقد وجد الكهنة والمتنبئون ووجد معهم السحرة « وأصحاب الجان » جنباً إلى جنب في أخبار التوراة من أقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجون الأنبياء لأنهم ينكرون أنهم أنبياء ، ويخرجون السحرة وأصحاب الجان إذا عرفوا أنهم سحرة وأصحاب جان ، وكذلك فعل الملك شاول قبل موت النبي صمويل ، فلما مات النبي بحث عن السحرة الذين نفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصته مع النبي في محضره ومع السحرة بعد غيبته نموذج للعقائد الأولى التي لم تفصل بعد كل الفصل بين الوظيفتين ، وإن فصلت بينهما في التمجلة والتقدّيس .

ويقول الإصحاح الثامن والعشرون من كتاب صمويل : « . . ومات صمويل وندبه كل إسرائيل ودفنوه في الرامة في مدينته . وكان شاول قد نفي أصحاب الجان والتوابع من الأرض ، فاجتمع الفلسطينيون وجاعوا ونزلوا في شونم ، وجمع شاول جموع إسرائيل ونزل في جلبوع ، ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب ، فسأل الرب فلم يجبه الرب

بالأحلام ولا بالأوريم - أى القرعة الكهنوتية - ولا بالأنبياء ، فقال شاول لعييده فقتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألتها ، فقال له عبيده : هوذا امرأة صاحبة جان فى عين دور ، فتنكر شاول وليس تهاباً أخرى. وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلاً وقال لها : أعرفى لى بالجان واصعدى من أقول لك . . فقالت المرأة : هوذا أنت تعلم ما فعل شاول . انه قطع أصحاب الجان والتوايع من الأرض . فما بالك تضع الشرك لنفسى تريد لها الموت ؟ فحلف لها شاول بالإله الحى لا ياحقنها إثم من هذا الأمر ، فسألته المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى لى صمويل صرخت بصوت عظيم وقالت لشاول : لماذا خدعتنى وأنكرت نفسك ؟ قال لها الملك : لا تخافى . ماذا رأيت ؟ فقالت المرأة : رأيت آلهة يصعدون من الأرض . . ثم قالت : رجل شيخ صاعد مغطى بحبة . فعلم شاول أنه صمويل فمخر ساجداً على وجهه ، وقال صمويل لشاول : لماذا أقلقتنى باصعادك أباى ؟ قال شاول : قد ضاق بى الأمر غاية الضيق . إن الفلسطينيين يحاربونى والرب يتخلى عني ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، ودعوتك لتعلمنى ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تسألنى وقد تخلى عنك الرب

وعاداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما أنبأنى به وتكلم به على يدي ، وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تستمع لصوت الرب ولم تنفذ غضبه فى عماليق ، فهو صانع بك ما صنعه اليوم وغداً يدفع بك وباسرائيل إلى أيدي الفلسطينيين ، وغداً تلحق بى أنت وبنوك ويدفع الرب إلى الفلسطينيين بجيش إسرائيل . فسقط شاول على الأرض وغشية الوجمل من قول صمويل ، ولم تكن له قوة لأنه لم يذق طعاماً نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة إلى شاول ورأته مرتاعاً فقالت له : لقد صدعت جاريته بأمرك ووضعت نفسها فى كفها تلبية لكلامك ، والآن تسمع أنت لصوت جاريته وتأكل من هذا الخبز الذى أضعه أمامك . كل فتكون لك قوة على المسير فى الطريق . فأبى أن يأكل ، وألح عليه عبداه والمرأة فاستجاب لهم وقام من الأرض وقعد على السرير ، وكان للمرأة عجل مسمن فى البيت

فأسرعت وذبحته وأخذت دقيقاً وعجته ونخبزت منه فطيراً وقدمته أمام شاول وعبيديه ، فأكلوا ودهبوا . . .

هذه القصة كنز من كنوز البحث في مقارنة الأديان يندر العثور على قصة مثلها فيما احتوته من شواهد المرحلة التي يبدأ فيها التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والإمامة الدينية والكهانة السحرية دون أن ينتهي التمييز إلى حدوده الواضحة .

فها هنا تمييز بين من يختاره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الإثنين في مكان واحد بعد الموت . فيذهب شاول إلى حيث يالحق بصمويل .

وها هنا تمييز بين الإمامة الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب إليه القدرة على تحضير روح النبي بغير مشيئته .

وها هنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث أو السحر الأسود ولكن ، الساحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن الجان أنهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لأنهم في خدمة شاول وهو مغضوب عليه .

وها هنا اسطلاح للغيب يطلب من النبوة كما يطلب من القرعة أو يطلب من صاحبات الجان والأرواح .

غير أن العبريين لم يسبقوا غيرهم في مراحل كثيرة من أطوار المسائل الغيبية والعبادات . فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر في الحضارة القديمة فانقسم إلى السحر الأبيض والسحر الأسود وإلى عمل الحكمة والمعرفة وعمل الخبيث والدنس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوظيفتين وقيمتين وأثرين مختلفين ، فتكلمت الأناجيل عن حكماء الجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه موالد السيد المسيح في مهده ، وظل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممنوع مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياها إلى اليوم .

فالسحر يسمى عندهم باسمين : أحدهما بسحر الجوس ويدل عليه اسم « الما جي » Magic الذى بقى فى اللغات الغربية بلفظه القديم .

والسحر الآخر يسمى بصناعة الساحرة Witchcraft ويؤخذ من اسمه هذا أنه كان مقصورا على المرأة منذ كانت المرأة فى العرف الشائع أداة فى الغواية وعون الشيطان على كيدته وعصيانته .

فقد كان الأقدمون يخلطون بين فتنة المرأة بوحى الغريزة الجنسية وفتنتها بوسوسة الشيطان ، ويحسبونها من ثم حباله شيطانية يسخرها الشيطان أو تستعين به هى على تسخير المفتونين لأغراضها ومشتياتها ، ويقع فى أذهانهم أنها أقرب إلى الخلسة والخداع لأنها تعاشر الشيطان فى زواج غير مشروع ولا يحسبونه إلا من قبيل السفاح الممنوع ، بل هم يحسبونه شرا من السفاح الممنوع ، لأن السفاح الممنوع بين الرجل والمرأة من الإنس لا يبلغ فى العصيان والمنكر مبلغ المعاشرة التى تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عدو الله .

وتتميز أدوات السحريين كما يتميز السحران فى المقصد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له أدواته من رصد الكواكب ورياضة النفس والروائح الزكية من الطيب والبخور .

وعلى نقيض ذلك سحر الخبث والأذى ، أو سحر الشيطان بعبارة أخرى ، فإنه يتوسل إلى مقاصده الخبيثة بكل دنس كربه من الأدوات والآلات ، ويقال عن سحرته أنهم ياثوثون كل طهر ويتنادون كل قداسة ، وأنهم يدنسون اللبن والكتب الشريفة ويتقربون إلى الشيطان باحلال الدعوات والصلوات، محل الحطة والطوان ، ويزعمون أن الضوء الشيطاني أيسر للمرأة من الرجل لأنها تستخدم فيه الدم المطرود ، ويعتمدون التشيع والتنفير جهدهم من التهويل فيزعمون أن الساحرة تمسح قدميها بشحم منتزع من جثة طفل ذبيح وتخرج للطيران من مدخنة البيت وهى تمتطى المكينة

المتسخة ، لأنهم لا يريدون أن يسلموا لها القدرة على الطيران إلا أن تكون من طريق الحريق والسواد وعلى أداة من أدوات الأوساخ والأرجاس .

* * *

ومن أصول السحر ، في عصور الحضارة الأولى ، ما يسمى بعلم التنجيم ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب في وقت واحد .

كان التنجيم أصلاً من أصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الإمام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر ، وكان الناس يؤمنون معه بربوبية الأفلاك وسريان مشيئتها في الأرضين ومن عليها ، فكان الكاهن إماماً يصلي لها وعالمها يعرف حسابها وساحراً يستطيع أسرارها ويتوخى التوفيق بينها وبين مطالب أتباعه ومقاديرهم التي يستنبئ عنها الغيب ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها .

وبقي التنجيم أصلاً من أصول السحر بعد زوال عبادة الأفلاك وبطلان القول بربوبيتها ، ولكن بطلان القول بهذه الربوبية لم يبطل القول بسلطان الأفلاك وتأثيرها بأمر الله في العوالم السفلية ، واختلف المتدينون في مدى هذا التأثير ، كما قال الكشناوى في كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، إذ ينقل آراء المختلفين فيقول : « إن الذي اختص به الصابئة وبعض الفلاسفة الذين وافقوهم على رأيهم إنما هو القول بالوهمية الكواكب واستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير في هذا العالم ، فهذا كفر مجمع عليه في جميع الملل والأديان . لأن الملل كلها مطابقة على أن المستحق للعبادة والذي بيده التأثير وتدبير الكائنات إنما هو إله واحد واجب الوجود متصف بصفات الألوهية والربوبية وإن كل ما عداه حادث مفتقر إليه على الدوام لا يستقل بنفسه في شيء من الأشياء ولو لحظة واحدة وأما القول بأنها مؤثرة بقوة أودعها الله فيها ثم تركها تؤثر بتلك القوة في العالم باذنه تعالى بحيث لو لم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلاً ومثلوا ذلك بملك يولى شخصاً بقطر من الأقطار فيفوض له الأمر والحكم هناك فيصير ذلك الرجل يمشي الأحكام في ذلك القطر بإذن ذلك الملك بحيث لو لم يرد ذلك

منه لعزله عن تلك الولاية — فهذا القول قد قاله جميع الملمين ومنها إمام الحرمين ولم يرتضه السنوسي بل عده من البدع المنكرة وشنع على القائلين به ولم يصل بهم إلى حد الكفر . وأما من يقول إنها أسباب عادية أجرى الله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع تجويز التخلّف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم في سائر الأسباب العادية من الأكل والشرب والقطع والإحراق ، فهذا القول لا ينكره أحد . . .

إلى أن يقول : « وثاني الشئتين المذكورين إثبات القوابل السفلية الأرضية ، لأنهم قالوا إن حصول الفاعل المؤثر لا يكفى وحده في حصول الأثر بل لابد معه من حصول القابل ولا يكفى أيضاً حصول القابل وحده بل لابد مع وجوده من كون الشرائط المعتبرة للقبول حاصلة والموانع زائلة ، لأنه ربما حلت في العالم الأعلى شكل غريب صالح لإفادة آثار غريبة في مادة العالم الأسفل ، فلا تكون المادة السفلية مهيئة لقبول تلك الآثار لعدم الشرط أو لوجود المانع . . فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة ذلك الشكل ومعرفة طبيعة الأمور المعتبرة في كون المادة السفلية قابلة لتلك الآثار ، لكان يمكننا أن نهيء تلك المادة لقبول ذلك الأثر . . » .

وعلى هذا التّويل بقي سحر التنجيم بعيداً من شبهة الإتهام بطاعة الشيطان بين أهل المشرق والمغرب ، حتى ظهر في كليهما من يلحقه بالوسائل الشيطانية ويعتبر السحرة تلاميذ الشيطان في هذه الصناعة لقدرته على الصمود والهبوط بين الأفلاك والعوالم السفلية وعرفانه بخفايا العوالم السفلية ونزعاتها وتهيئ أحوالها للتأثر والانفعال بما فوقها .

وقد أورد صاحب الكتاب المتقدم أقوالاً مختلفة في التعريف بما سماه علم السحر فقال : « . . اعلم أنهم اختلفوا في تعريفه لاختلاف المذاهب فيه ، فعرفه صاحب أرشاد القاصد بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية ، وعرفه ابن العربي الفقيه المالكي بأنه كلام مؤلف يعظم فيه غير الله عز وجل وتنسب إليه الكائنات والمقادير ، وبعضهم عرفه بأنه ما يغير الطبع ويقلب الشئ عن حقيقته . . ومنفعته

عند الإسلاميين أن يعرف ليحذر منه لا ليعمل به ، ولا نزاع في تحريم العمل به بتا ، وأما مجرد تعلمه ففيه خلاف بين الأئمة ، فبعضهم منعه وجرموه حسماً للباب كالمالكية ومن وافقهم ، وبعضهم أباحوه ، وأغرب بعض النظار حيث عدوه من فروض الكفايات لجواز ظهور ساحر يدعى النبوة فيكون في الأمة من يكشفه ويقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد في إرشاد القاصد . . ولتعلمه فائدة أخرى وهي أن يعرف منه ما يقتل فيقتل فاعله به قصاصاً عند من يقول بذلك .

ثم مضى المؤلف يذكر أقسامه فقال : « إنه حقيقى وغير حقيقى . . وأن الطرق فيه اختلفت على أربعة مذاهب : أحدها طريقة تصفية النفس وتعليق الوهم وهي طريقة أهل الهند ، لأنهم يعتقدون أن تلك الآثار السحرية إنما تصدر عن النفس الناطقة ولذلك يلزمون الرياضات الشاقة حتى تصفو نفوسهم وتتجرد عن جميع الشواغل البدنية بحسب الطاقة البشرية . . وهذا المذهب مبني على ثبوت التأثير لتوجيه النفس وتعليق الوهم . . والمذهب الثانى من المذاهب الأربعة التى للسحر ، طريقة النبط وهي عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب مضافة إلى رقية ودخنة بعزيمة نافذة في وقت مختار ، وتلك الأشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات وتارة تصاوير ونقوشاً كالشعابيد وتارة عقدا تعقد وينفث فيها وتارة كتباً تكتب وتدفن في الأرض أو تطرح في الماء أو تعلق في الهواء أو تحرق بالنار ، وتلك الرقية التى يرقى بها تضرع إلى الكوكب الفاعل للغرض المطلوب على زعمهم ، وتلك الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لاعتقادهم أن هذه الآثار إنما تصدر عن أجرام الكواكب ، وكتاب سحر النبط نقل ابن وحشية يشتمل على تلك الطريقة . . والمذهب الثالث من المذاهب الأربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين وهو تسخير روحانية الكواكب والأفلاك واستئصال قواها بالوقوف والتضرع إليها لاعتقادهم أن هذه الآثار إنما تصدر عن روحانية الأفلاك والكواكب لا عن أجرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة أهل المذهب الثانى وأهل الطلسمات . . والمذهب الرابع من المذاهب الأربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعانى.

كانها أقسام وعزائم بترتيب خاص كأنهم يخاطبون بها حاضراً لاعتقادهم أن هذه الآثار إنما تصدر عن الجن ويدعون في تلك الأقسام أنها تسخر ملائكة قاهرة للجن .

وقد أورد الأوغنستاني في رسالة اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان ، أمثلة في الآيات وجملته إعدادها بحروف الجمل وتقسيات هذه الآيات والإعداد إلى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسخرون الجان ليعود هؤلاء فيسخرُوا الطبيعة والناس ، في زعم أصحاب هذه الأرصاد .

* * *

والمفهوم من مؤلفات الأوربيين في السحر والطلاسم أنهم نقلوا جميع النفسيات واقتدوا بالشرقيين في الحكم عليها من الوجهة الدينية ، واتخاوا من عطار د كوكياً راعياً للسحر كأنه خليط من الرب اليوناني القديم والشيطان ، وجعلوه ولياً للشطار والخبثاء وأدعياء النظم وأصحاب الخداع باللسن والخطابة ، وانتهى بهم الأمر إلى تحريم هذه المعارف السحرية جميعاً وتقسيم المعارف كافة إلى قسمين : قسم حلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برخصة من الرؤساء ، وقسم حرام وهو كل ما عداه بلا استثناء للمذاهب الفلسفة وتجارب العلوم الحديثة ، فدخل في عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه أناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن — كذلك — كل سحر يزعم أصحابه أنه من العزائم التي يستعينون فيها بالملائكة ، فقد شاع في تلك القرون أن الشيطان يتشكل بأشكال الملائكة والأرواح العلوية كما قال بولس الرسول في رسالة كورنثوس الثانية « لأن هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ما كرون مغبرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك النور ، فليس عظيماً إن كان خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر » .

واحترز أحرار الكنيسة من دعوى كل مدع ينسب إلى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستيحاء العيب ، فعم التحريم كل عزيمة من عزائم السحر وما إليه ، وكان القانون يعاقب على جريمة السحر بالابوت إذا ثبت

أن الساحر استخدم طلاسـم لإهلاك المسحور ، ثم صدر فى انجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضى بالموت على كل من يثبت عليه تعاـطى السحر ولو للعلاج وشفاء الأمراض ، لأنه مخالفة مع الشيطان وكل مخالفة مع الشيطان خيانة لله ، وكانت انجلترا مع هذا معدودة من البلاد التى تخضع كل الخـضوع للسيطرة الكهنوتية ، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل فى القارة الأوروبية حيث أحرقت النساء عقابا على السحر وأحرق الأطفال لأنهم من ولد الشياطين ، وصدرت آخر هذه الأحكام فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها مما صدر فى الولايات المتحدة .

وانتهى القرن الثامن عشر والرأى الغالب على أهل الغرب أن السحرة . جميعا حلفاء الشيطان ، وأن من السحرة كل من يروض الطبيعة بعلم غير العلوم التى يقرها الدينيون .

السُّلْطَانُ وَالْفَنُّونَ

قال أبو العلاء :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما

رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وربما كان أبو العلاء يخص العرب دون غيرهم بهذا القول ، ولكنه في الواقع قول يعم جميع الأقسام ويعم جميع أنواع الإحسان في الكلام في غير الكلام .

فالعبقرية عند الأوروبيين منسوبة إلى الجن ، ومعنى العبقرى عندهم أنه صاحب الجنة أو الشبيه بالجنة في القدرة والتفوق كائننا ما كان العمل الذي يتفوق فيه ، وكلمة « جينياس » Ginius ، تطابق على كل صاحب قريحة خارقة للمألوف في الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها في الشعر والنثر أو في التصوير والنحت أو في الانشاء والتلحين أو في العلم أو الصناعة أو تدبير المال وسياسة الشعوب .

والعبقرية في التعبير العربي الحديث مأخوذة من كلمة عبقر ، موضع يقولون أن الجن تسكنه وأن الصناعات الفائقة كلها تنسب إليه ، ومنها صناعة السيوف كما قال امرؤ القيس :

كان صليل المرو حين تطيره

صليل سيوف يتقلدن بعبقرا

ويقولون أن سكانه أنفسهم موصوفون بالجمال كما قال الأعشى :

« كهولا وشبانا كجنة عبقر » .

ويرد بعضهم أن الكلمة مأخوذة من الكلمة الفارسية « آبكار » بمعنى الرونق ، وهو بعيد لأن اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر ولا يوجد في الأصل الفارسي ما يوحي بهذه

القصة أو يوحى بأسباب اقتباس الكلمة على حسب العرف المأثور في هذه المقتبسات .

وتذكر كلمة « عبقرى » وصفا للنفاة بغير نظر إلى اشتقاقها من المكان المزعوم ، كما جاء فى سورة الرحمن من القرآن : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » .

* * *

ومن التعبيرات المتشابهة بين اللغات وصف الإبداع بالاعجاز ووصف الاعجاز تارة بالدقة التى تخفى أسرارها على غير ذوى الفطنة ، وتارة بالفخامة التى تتعاضم العاملين من غير ذوى العزم والقدرة الحارقة .

يقال ذلك فى البلاغة ومعانيها الخفية وفطنتها النافذة إلى الخبايا والأعماق .

ويقال ذلك فى المساعى الكبار التى يضطلع بها المردة الجبارون ولا يقوى على الاضطلاع بها من دونهم من ذوى الأجسام المحسوسة .

وحيث تسرى الخواطر إلى تصور الخفاء والدقة والقدرة الحارقة لا جرم . تنهى بمسراها إلى العوالم الخفية التى لا ترى بالعيون ولا تحدد قدرتها بما يحدد الأيدى والأقدام من أجسام بنى آدم وحواء .

ولهذا الاستطراد الطبيعى فى تتابع الخواطر توافقت بداهة البشر على علاقة البلاغة بالجن بل على علاقة كل « بالغ » من الأقوال والأعمال بتلك الخلائق المستترة التى لا تحدها نقائص اللحم والدم ، لأنها متلبسة فى الأذهان بخلاقة النار والريح ومادة « الجو اللطيف » مما لا يحصر ولا يحال . بينه وبين مسعاه .

والعرب تزعم أن شعراءها تستوحى الجن وأن كل شاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه . فهيب اسم شيطان عبيد ، ومسحل اسم شيطان الأعشى ، وجهنام اسم شيطان عمرو بن قطن ، وسنقناق اسم شيطان بشار ، ويزعم الفرزدق أن الشعر منقسم بين شيطانين أحدهما يسمى الهوجل .

وهو موكل بالجد من الشعر والآخر يسمى الهوبر وهو موكل برديته
وسقطه ، وأنشده رجل من تميم بيتا يقول فيه :

ومنهم عمر الحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتم

فضحك وقال : إنهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر
في أوله فأجدت ونخالطت الهوبر في آخره فأفسدت .

وكان أبو النجم الرجاز يفخر على الشعراء ويقول إن شياطينهم جميعا
أناث ما خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

أني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وكانه نظر في ذلك إلى فحولة الكلام ، مما اشتهر به الرجز ولم يشتهر
به الشعر في زمانه .

ويكون مع الشيطان تابع أو « رثي » كأنه الراوية الذي يحفظ ما يليقه
الشيطان القائل عفو الخاطر .

وفي كتاب « آكام المرجان في أحكام الجان » نظم كثير منسوب إلى
الجن بغير واسطة الإنس أو مشترك بين قائلين أحدهما من هؤلاء والآخر من
هؤلاء ، ومن هذا الشعر المشترك :

قال بعد عننة طويلة : « ... خرجت مع نفر من قریش نريد الشام
فزلنا بواد يقال له وادی عوف فعرسنا به فاستيقظت في بعض الليل فاذا
أنا بقائل يقول :

ألا ملك النساك غيث بني فهر

وذو الباع والمجد التليد وذو الفخر

فقلت في نفسي والله لأجيئنه فقلت :

ألا أيها النساقي أخوا الجود والفخر

من المرء تنعاه لنا من بني فهر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهر

فقلت :

لعمري لقد نوهت بالسيد الذى
له الفضل معروفًا على ولد النضر

فقال :

مررت بنسوان يخمشن أوجهها
صاحا عليه بين زمزم والحجر

فقلت :

متى ؟ ان عهدي فيه منذ عروبة
وتسعة أيام لغرة ذا الشهر

فقال :

ثوى منذ أيام ثلاث كوامل
مع الليل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظت الرفقة فقالوا من تخاطب ؟ فقلت هذا هاتف ينعى ابن
جدعان ، فقالوا : والله لو بقى أحد بشرف أو عزة أو كثرة مال لبقى
عبد الرحمن بن جدعان . فقال ذلك الهاتف :

أرى الأيام لا تبقى عزيزا لعزته ولا تبقى ذليلا
فقلت :

ولا تبقى من الثقلين ثقلا
ولا تبقى الحزون ولا السهولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصيدة إلى قول حسان بن ثابت فى المساجلة
الشعرية حيث يقول عن صاحبه الجنى :

ولى صاحب من بنى الشيطانا ن فطورا أقول وطورا هو

وقد روى صاحب آكام المرجان أبياتا كثيرة من نظم الجن في رثاء
عظماء الصحابة وآل النبي ، منها ما نسب إلى الجن منفردين به ومنها ما
اشترك فيه قائلان كالأبيات التي رويت في رثاء ابن جدعان .

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشاعرين أنهما يأخذان من
شيطان واحد . فذكر صاحب مواسم الأدب أن الفرزدق وجريرا ركبا
ناقة إلى الرصافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فنزل جرير في بعض الطريق ...
فتلفت نحوه الناقة فأنشد الفرزدق :

سلام تلفتين وأنت تحتي
ونخير الناس كلهم أمـامـي
متى تردى الرصافة تستريحى
من الادلاج والدبر الدوامى

ثم قال في نفسه : الآن يحىء ابن المراغة فيسمع ما أنشدته فيه فيجيبني .
بقوله :

تلفت أنها تحت ابن قين
أبى الكيرين والفاس الكهام
متى ترد الرصافة تخز فيها
كمخزيك في المواسم كل عام

ثم جاء جرير فأخبره الفرزدق بالقصة وأنشده البيتين الأولين فلم
ينشب أن أنشده البيتين الأخيرين ، فضحك الفرزدق وقال : والله يا أبا
حرزة لقد قلتما قبل أن تأتى . قال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟

وكل هذا ولا شك تلفيق يعلمه ملفقوه ، ولكن الأصل فيه قائم على
اعتقاد طبيعى شائع يميل إلى الناس في شتى الأمم أن المعانى الخفية لا تخلو
من علاقة بالمخلوقات الخفية ، وأن أسرار الصناعات التي تدق عن نظر
العيون يذنبى أن تطلع عليها العيون التي تعيش في عالم الأسرار ولا يدق عن
نظرها شيء في حلقة الظلام .

ويقال عن فن الغناء ما يقال عن فن الغريض ، وبخاصة في الزمن الذي كان فيه الغناء موقوفا على البيت أو الأبيات يختارها المغنى من كلام الشاعر في عصره أو في غير عصره .

روى صاحب الأغاني أن القريض كان يقتبس بعض أصواته من عزيف الجن ويزعم ذلك مخالاة بصنعتة ، فأنكر عليه سامعوه ما يدعيه ، حتى كان ذات ليلة يغنى لجماعة من نساء مكة فسمعن عزيفا عجيبا ذعرن منه فقال ابن القريض : أن في هذه الأصوات صوتا إذا نمت سمعته وأصبحت فغنيت به ، وأصغين إلى الصوت فاذا هو نغمة من نغمة ألحان القريض .

وأدعى اسحق بن ابراهيم الموصلى أن الغناء الماخورى الذى افتتن به الناس من فن أبيه إنما كان من صنع إبليس .. قال عن أبيه : « استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من أيام الجمعة أنفرد فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت ... فأقمت بمنزلى وأخذت فى إصلاح طعامى وشرابى وأمرت البواب ألا يأذن لأحد فى الدخول على ، فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففن بى إذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار ... فدخلى غيظ عظيم لدخوله على وهممت بطرد بوابى .. فسلم على أحسن سلام فرددته عليه ودعوته إلى الجلوس فجلس وأخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب فظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله على لأدبه وظرفه . فقلت : هل لك فى الطعام ؟ فقال : لا حاجة لى فيه . قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك إليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : يا أبا اسحاق . هل لك أن تخميننا شيئا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ... فغاظنى قوله ثم سهلت الأمر على نفسى فأخذت العود فاجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : أحسنت يا ابراهيم ! .. فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير إذن واقترحه على حتى سماني باسمى ولم يجمل مخاطبتى . ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك ، فتعجبت فى نفسى وقلت : بم يكافئنى ؟

ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيت به قياما كافيا لقوله لى
أكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدى ! ثم قال : أتأذن لعبدك فى
الغناء ؟ فقلت : شأنك ! واستضعفت عقله أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه
منى ، فأخذ العود وجسه فوالله لقد نخلت العود ينطق بلسان عربى فصيح فى
يده واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كيدا ليست بذات قروح

إلى آخر الأبيات ..

« فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل ما فى البيت
يجيبه ويغنى معه من حسن صوته ، حتى نخلت والله أنى أسمع أعضائى
وثيابى تجوابه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى من
اللذة التى غيبتنى عن الوجود ، فلما رآنى كذلك أخذ العود ثانية واندفع
يغنى بهذه الأبيات :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة
فانى إلى أصواتكن حزين

إلى آخر الأبيات ..

فكاد عقلى أن يذهب طربا ، ثم غنى ليزيد بن الطثرية :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

إلى آخرها ..

ثم قال : يا ابراهيم ! هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك
وعلمه بجواريك . فقلت : أعده على . فقال : لست بمحتاج . قد أخذته
وفرغت منه ، ثم غاب من بين عيني . فارتعدت لذلك ، وقمت إلى السيف
فجردته وغلدوت نجو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى :
أى شىء سمعن عندى ؟ فقلن : سمعنا أحسن غناء ، لم نسمع قط أحسن
(إبليس)

منه ، فخرجت متحيرة إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال : أى شيخ ؟ والله ما دخل عليك أحد ... فرجعت لتأمل أمرى فاذا هو قد هتف بى من بعض بجوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحاق ! أنا أبوه مرة ابليس ... وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع ... فركبت إلى الرشيد وأخبرته بالحديث ، فقال : ويحك . أعد الأصوات التى أخذتها . فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى .. » .

وقد كان عهد العرب بعزيف الجن فى الصحراء قديما جدا لم يتغير ظنهم به فيما نظمته الشعراء الإسلاميون ، نذى الرمة حيث يقول :

ورمل كعزف الجن فى عقداته

هرير كتضرب المغنين بالطبل

غير أنهم خصوا الشاعر بالشیطان الملازم ولم يجعلوا للمغنى شيطانا مثله لأن فن الشعر كان أقدم عندهم من فن الغناء ، وإنما كان غناؤهم حذاء أو محاكاة للحذاء ، وكان الحذاء نغما شائعا يغنيه كل سائق يحدو الإبل فى طريقة لا محل فيها للافتتان والتنويع ، وكان غناؤه على الأكثر فى قافلة لا ينفرد عنها بمكان يظن أنه يخلو فيه بالجن لتلقنه ويستمتع منها ، فلما ظهر المغنون آحادا منقطعين لعملهم منفردين بوضع ألحانهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالأخذ عن الجن فى صناعتهم مغالاة بها عن قدرة الإنس فى هذه الصناعة ولكنهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتأصلوا فيها كما تأصل الشعراء فسمعت من آحاد متفرقين ولم تكن إجماعا من وحى البديهة فى البيئة بأسرها .

* * *

وقد روى عن الصناعات العلمية كالطب . ما روى عن صناعة الكلام . وصناعة الغناء . فأسند صاحب كتاب الهوائف إلى النضر بن عمرو الحارثى قصة قال فيها :

« إنا كنا فى الجاهلية إلى جانبنا غدير فأرسلت ابنتى بصحيفة لتأتينى بماء فأبطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فیتسنا منها .. قال : والله إنى جالس ذات

ليلة بفناء مظلتى إذ طلع على شيخ فلما دنا منى إذا بنى . قلت : ابنتى ؟
قالت : نعم ابنتك . قلت : أين كنت أرى بنية ؟ قالت : أرأيت ليلة
بعثتنى إلى الغدير أخذنى جنى فاستطار بى فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين
فريقين من الجن حرب فأعطى الله عهدا إن ظفر بهم أن يردنى عليك ،
فظفر بهم فردنى عليك .. فاذا هى قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب
لحمها وأقامت عندنا فصلحت فيخطبها بنو عمها فزوجناها ، وقد كان الجنى
جعل بينه وبينها أمانة إذا رابها ريب أن تدخن له ، وإن ابن عمها ذاك عيب
عليها وقال : بجنية شيطانة . ما أنت بإنسية . فدخنت فناداه مناد : مالك
ولهذه ؟ لو كنت تقدمت إليك لفقت عيناك ، رعيتهما فى الجاهلية بحسبى
وفى الإسلام بدينى .. فقال له الرجل : ألا تظهر لنا حتى نراك ؟ قال :
ليس لنا ذاك . إن أبانا سأل لنا ثلاثا : أن نرى ولا نرى ، وأن نكون بين
أطباق الثرى ، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبته حنكه ثم يعود فى . فقال
ابن عمها : ألا تصف لى دواء حمى الربيع ؟ قال بلى . قال : ما رأيت تلك
الدويبة على الماء كأنها عنكبوت ؟ قال بلى ! قال : فخذها ثم أشدد على
بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى ففعل . قال : فكأنما
نشط من عقال . فقال الرجل يا هذا ألا تصف لنا من رجل يريد ما تريده
النساء ؟ قال : هل أملت به الرجل ؟ قال : نعم . قال : لو لم يفعل وصفت
لك .. » .

وبجاء فى كتاب آكام المرجان بعد نقل هذه القصة جملة أخبار من قبيلها
يتلقى فيها الإنس عن الجن علما من علوم الطب لعلاج بعض الأمراض ومنها ،
أمراض لها فى عرف الأقدمين علاقة بالجن كالصرع والوهم والهزال وبعض
هذا العلاج دواء وبعضه من الرقى والتأائم التى تدخل فى طب السحر والكهانة .

وما من صناعة بلغت مبلغ الإعجاز فى رأى قوم إلا كان لها تفسير
من معونة الجن أو المردة ، ويرجعون فى هذا التفسير إلى الخبر المنقول كما
يرجعون إلى الحجاز والتخييل . فمما نقله الشعراء من أخبار الرهبان ونسك
البيع قبل الإسلام قول النابغة عن معابد بعليك أو تدمر .

الا سليمان إذ قال الإله له
قم في البرية فاحدد لها عن الفند.
وخيس الجن أنى قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والجمد

وجاراه البعيث في قوله :

بنى زياد لذكر الله مصنعة
من الحجارة لم يعمل بها الطين
كأنها غير أن الإنس ترفعها
مما بنت لسليمان الشياطين

والبحترى يصف ديوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدرى أصنع انس لجن
سكنوه أم صنع جن لانس

فهو هنا يرى بناء فخما مهجورا يصح أن يكون من صنعة الإنس.
للجن لأنه خراب موحش كمساكن الجان ، ويصح أن يكون من صنعة
الجن للإنس لأنه فيما هاله من فخامته أكبر مما تبلغه طاقة الإنسان .

» * «

ولا يفهم القول بسخير الجان لخدمة الفنون فهما صحيحا إلا مع التفرقة
الواجبة بين نوعين من التسخير ينبغي ألا يلتبس أحدهما بالآخر في هذا المقام .

فالتسخير الذى يشمل بنى آدم جميعا ويشمل القوى والعناصر جميعا
غير التسخير الذى يأتى فلتة من حين إلى حين بالحيلة التى يحتالها الشيطان
أو يحتالها الإنسان ، ولا تبلغ بحال من الأحوال أن تساق مساق التعميم فى
الكلام على خلق الأحياء وخلق السموات والأرضين .

فمن التسخير الذى يجرى مجرى النواميس الكونية قوله تعالى فى القرآن
الكریم : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ،

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآنا كم من كل ما سألتموه .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره » .

وقوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

وقوله تعالى عن داود وسليمان : « وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولوسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره » .

ولم يرد فى القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والإنس والحيوان إلا بهذا المعنى ، ومنه ما جاء عن تسخيرها لسليمان « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » .

ومنه : « والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد » . فهذا التسخير الذى يفهم منه أن الإنسان قد أوتى علما يسيطر به على القوى والعناصر وما فى الأرض ، إنما يجرى مجرى النواميس الكونية على عمومها ، ولا يخص به إنسان من الناس إلا كما يخص بعلم ببناء السفن وصوغ الحديد . واستخدام الريح بأمر من الله فى غير احتيال من الشيطان أو اختلاس من الإنسان . وليس من قبيل هذا التسخير ما يقال عن أسرار السحر والطلاسم . وأغراض التحالف والمخادنة بين الاناسى والشياطين .

فذاك تسخير تجرى فيه إرادة الله وقدرته الإنسان وأحكام القوى والعناصر كيفما سميناها ، مجرى العموم المطرد فى النواميس الكونية التى يعلمها من يقدر على علمها .

أما التسخير المقصود بالسحر وما إليه فهو إلى خرق النواميس أقرب . منه إلى عجاراتها والعمل بإرادة الله فيها ، وإنما تخرق فيه هذه النواميس بشمن .

يمبذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاباة الرشوة وجزاء المخالفة
والمروق عن مجرى الأمور .

* * *

ونعود إلى عمل الشيطان في الفنون فنلاحظ أن ملكة الخيال تتقارب
في رواياته وأقاصيصه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من إنسان واحد ،
يتخيل الشيء الواحد في أوقات مختلفات .

فالعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان - ومن نقل عنهم -
يتحدثون عن جنيات الفنون التي اصطللحنا على تسميتها بالعرائس ولم نسلها
بذلك نسبتها إلى الجان . وقد قيل عن سقراط أنه كان يستمع وحي الحكمة
من بجنى أو شيطان كأنه يستمع إلى صوت صديق من الإنس يحاوره ويناجيه .

وقصة الموصلي مع إبليس لها نظير من قصة الموسيقى الإيطالي جيوسي
ترتياني في أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٣) حيث كان نزيلا بأحد
الآديرة فجاءه الشيطان في المنام وتناول قيثارته وعزف عليها لحنا أذهله ،
ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه إبليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، فقنع
منه بما وعاه وسماه هزة الشيطان .

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح في الشرق يضارعهم في اليونان
جماعة المردة المشهورين باسم « التيتان » .

والأطباء في القرون الوسطى كانوا ينافسون الكهنة في صلواتهم
ودعواتهم للمرضى فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتأثير التي يزيفونها
باسم الطب ويشترون بها أرواح المصابين ثمنا لما يخدعونهم به من مظاهر
الشفاء وباطن الهلاك والبوار .

* * *

والحكم على شياطين الفنون من الوجهة الدينية متقارب في المشرق
والمغرب .

فالغالب على شياطين الفنون أنها شياطين قدرة وإبداع وليست بشياطين
غواية وإفساد .

ولكن الفنون قد تستخدم للغواية والفتنة كما تستخدم للزينة وإبراز
معاني الجمال ، وكان جرير يفخر بشعره فيقول إنه من رقى الشيطان
ويمدح الرجل الصالح فيقول ما معناه أن الله عصمه من رقاها .

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه

وقد كان شيطاني من الجن راقيا

فاذا كان الفن من آلات الإصلاح والفتنة فشيطانه من شياطين القدرة
والجمال ، وإذا كان من آلات الفتنة والغواية فشيطانه من جند إبليس ،
وقد قال الإمام ابن الجوزي في فصل من كتابه « تلبيس إبليس » وحرم
في نهايته غناء التطريب واللهو .. قال في أوله : « وفصل الخطاب أن نقول
ينبغي أن ينظر في ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير
ذلك ، والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات فان أقواما
من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعارا يصفون فيها الكعبة
وزمزم والمقام وربما ضربوا مع إنشادهم بطبل فسماع تلك الأشعار مباح
وليس إنشادها إياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ، وفي معنى هؤلاء
الغزاة فانهم ينشدون أشعارا يحرصون بها على الغزو ، وفي معنى هذا إنشاد
المبارزين للقتال أشعار التفاخر عند النزال ، وفي معنى هذا أشعار الحداة ..
وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة إلى حاد مع
قوم فسلم عليهم فقال : إن حاديننا نام فسمعنا حاديكم فملت إليكم ...
وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقال له أنجشه يحدو فتعنى
الإبل . فقال رسول الله : يا أنجشة رويدك ! رفقا بالقوارير . وفي حديث
سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله إلى خيبر فسرنا ليلا فقال
رجل من القوم لعامر ابن الأكوع : ألا تسمعنا من هنياتك ؟ وكان عامر
رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول :

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تضدقنا ولا صلينا
فألقين سكينه علينا وتبت الأقدام إذ لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من هذا السائق؟ قالوا عامر
ابن الأكوع ، فقال يرحمه الله .. » .

ولنذكر مع كلام الإمام ابن الجوزي أنه ألف كتابه للكشف عن
تلبيس إبليس فلم يدع طائفة إلا كشف منها لونا من ألوان هذا التلبيس ،
ولم يستثن الحكماء والفلاسفة والمتصوفة والنسك ، فما بالك بأصحاب الفنون
وقالة الشعر ومنشدي الغناء .

سَيَاطِينُ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ

يغلب أن يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء أنفسهم ، وأن يكون الكلام عنه لاحقا لظهور الشعر وانتشاره ، فان لم يكن هذا الشيطان مخلوقا شعريا فهو مخلوق خيالي أبدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكرى الجاهليات الغابرة له خيال كمخيال الشاعر ، وقد تشابه أسلوب السحرة والكهان فى نبوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين أهل المشرق والمغرب ، فكلها تتوخى السجع والقافية وتخالف كلام الساحر أو الكاهن فى سائر أقواله ، ليصبح القول فيها أنها من وحى غير وحيه ومصدر باطن غير مصدر تفكيره الظاهر ، فاذا نسب الشعر إلى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول . ولم يزل بين الشعر والسحر نسب قديم .

على أن خيال الشعراء يعمل فى تصوير كل كائن غير منظور ولو لم صوروه فى الصور التى تتمثل للعين والصور التى يدركها الفكر وتلم بها يكن من خلق الشاعر . وشيطان الأديان لم يخلقه الشعراء ولكنهم أحلام اليقظة . ونذر من الشعراء ، خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قابلة للتمثيل فى العيان أو للتجسيم على يد الفنان ، وقد صنع له المثالون الغربيون تماثيل على صورة الإنسان ذات ذنب وقرنين وظلف كأظلاف الجداء ، وجاء فى الشعر العربى ما يصلح أن ينقل منه تمثال محسوس كما قال بعض الأعراب فى رواية الخليل بن أحمد :

وحافر العير فى ساق خدلجة

وجفن عين خلاف الإنس فى الطول

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال إنسانى منحرف بعض الانحراف أو مشوه فى أصل الحلقة لمجرد المخالفة بينه وبين الملامح الإنسانية ، ومن ذاك وضع العين بالطول وتخيله بعين واحدة فى وسط جبهته ، إلى أشباه ذلك من التشويه المقصود لجراحة الخيال فى استلزام المخالفة

بين منظر الإنسان ومنظر الشيطان . وعلى نقيض ذلك كان تصوير شاعر
الفرس — السعدي الشيرازي — للشيطان الذي رآه في الحلم . فقد رآه
« بقامة كفرع البانة وعينين كأعين الحور وطلعة كأنها تضيء بأشعة النعيم » ..
ولما علم أنه الشيطان أدهشه أن يكون الرجيم البغيض بهذه الوسامة المحبوبة ،
وسأله فلاحته على طلعتة كبرياؤها وقال : « لا تصدق يا صاح أنه مثالي
ذاك الذي رأيتهم يمثلونه . فان الريشة التي ترسمني تجرى بها يد عدو محسود .
سلبتهم السماء فسلبوني الجمال .. » .

ولا يعني في هذا الفصل نقل الصور « الحسية » التي اخترعها الشعراء
والفنانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر ، ولكننا نجمع هنا بعض أوصافه
التي تقع في روع المتخيل أو تعرض للفهم عن تفكير واستنباط ، وليست
هذه الأوصاف بالكثيرة ولا بالمتباعدة في جوهرها ، وليس فيها من ابتداع
إلا والمنطق يوحى به لزاما في أوصاف الشياطين على إجمالها ، وإنما الجديد
فيها قدرة الشاعر على إبراز « الشخصيات » وتلوينها بألوانها الخلاقية ، وكل
هذه الشياطين التي جاءت « مشخصة » في أقوال شعراء الغرب قريب من قريب .

وليس أشهر في « الشخصيات » الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو
وجيتي وملتون وبليلك وكاردوتشي ، من شعراء القرن السادس عشر فما
بعده . فانهم هم الشعراء الذين خلعوا على الشيطان مسحة مسرحية من فهم ،
ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب
اللاهوت ، ولم يرد شيطان كاردوتشي في قصة مسرحية ولكنه مثله على
مثال الشخصيات السياسية التي تقوم ببعض الأدوار على مسرح الحوادث .

ولد كريستوفر مارلو Christopher Marilowe الشاعر الإنجليزي
في سنة ١٥٦٤ وظهرت في حياته قصة الساحر فوستوس بالألمانية ثم ترجمت
إلى اللغة الإنجليزية ، ومدارها على رجل ساحر متعطش إلى المتعة والسطوة
لم يجد بغيته منهما في العلم والفقه فأقبل على كتب السحر الأسود يلتمس منه
القدرة على تسخير الشيطان لما يهواه ، وتعاقد مع الشيطان على قضاء أربع
وعشرين سنة في المتعة التي يهواها ، ثم يسلمه روحه ليهبط بها إلى الجحيم .

ويجري الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعاقد بينهما كما يأتي :
مفستوفليس : فوستوس ! أقسم بالبحيم وليوسيفز أن أنجز جميع
الوعود التي اتفقنا عليها .

فوستوس : إذن دعني أقرأها على الشرائط التالية :
أن يكون فوستوس روحا في الصورة والهيولى .
وأن يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره .
وأن مفستوفليس يجيبه إلى كل طلب ويحضر له كل مطلوب .
وأن يكون في بيته أو مكتبه غير منظور .
وأن يظهر لجون فوستوس في كل وقت كما يجب .

وأنا الدكتور جون فوستوس من ويرتنبرج ، بهذا الجزاء ، أضع
جسدي وروحي بين يدي ليوسيفر أمير المشرق ووزير مفستوفليس ،
وأفوض له بعد أربع وعشرين سنة كل التفويض بناء على هذا العقد المسجل
غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوستوس
حيث كان وأن يحملوه جسدا وروحا ولحما ودها ومالا ومتاعا إلى حيث
يقيمون .

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعا بدم الساحر بدلا من المداد .
ويظهر مفستوفليس في الرواية باسم ملك سوء حينما وباسم الشيطان
أو باسمه المشهور في أكثر الأحيان ، وهو رئيس لزمرة من الشياطين مرعوس
لإبليس المسمى هنا باسم ليوسيفر زميل بعزبول ، ومن مرعوسيه سبعة
شياطين مأمرين هم : شيطان الكبرياء ، وشيطان الطمع ، وشيطان الغضب ،
وشيطان الحسد ، وشيطان الشهوة ، وشيطان الكسل ، وشيطان الدعارة .

ويقضى الدكتور فوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعا بما يهواه من
حسان الدنيا وحسان التاريخ ، ومنهن « هيلينا » التي فتنت اليونان الأقدمين
و « باريس » التي نالت الجائزة قديما في مباراة الجمال .

ويغلب على ليوسيفر - كما صورده مارلو - أنه يضع الأمور في

مواضعها ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ويعطى الخير حقوقه كما يجب ، فهو ييئس الساحر العالم من سعى السيد المسيح في خلاصه وينبئه أنه عاجز عن إنقاذ روحه ، ولكنه لا يرد هذا العجز إلى غلبته ورجحان الشر على الخير في حوله وحيلته ، بل يرده إلى عدل المسيح وأنه ليس من العدل أن ينجو من لم يكن أهلاً للنجاة ، ولا ينكر الشيطان جدوى الندم والبكاء واستجابة الصلاة والدعاء ، ولكن الشيطان يستخدم حقه — على حكم العهد — في تقييد يدي الساحر فلا يقدر على رفعها إلى السماء ، ونزف دموعه فلا يقدر على البكاء ، وعقد لسانه فلا ينطق بالصلاة والدعاء .

* * *

ويأتى ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) بعد مارلو بفترة ومجيزة في التاريخ الزمنى ، ولكن الشيطان الذى صورته ملتون أهم من الشياطين « الشعرية » التى صورها من سبقوه ولحقوه في هذا الموضوع بين شعراء الغرب . ومن الدراسات التى تناولته دراسة الشاعر من الوجهة النفسية ، ودراسة الأدب والبلاغة ، ودراسة العقائد وعلاقتها بالعصر والأحداث السياسية ، ودراسة الأطوار التى تتمثل فيها التقوى حيث تراءى أحيانا على نحو يوافهقا كما تراءى على نحو يناقض مظهرها وغايتها .

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المتطهرين ، وكان أمين السر اللاتينى فى حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقائد كرومويل الذى قاد الثورة على الملك شارل الأول ، وقد عمى فى أواخر أيامه وشمّت به شارل الثانى فقال له : ألا ترى يامستر ملتون أن الله عاقبك بفقد بصرك على ما كتبته فى أبى ؟ وكان ملتون مشهورا بسرعة الجواب ، وأجوبة فى قصيدة الفردوس المفقود تعرض لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة فى حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع إلى الجواب قائلا : وعلى أى ذنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟

وملتون مم يبدع قصيدته كل الإبداع ، بل استعار من جليوم دى بارتاس Bartas (١٥٧٨) فى قصيدته أسبوع الخليقة ، واستعار من افيتوس Avitus فى قصيدته عن الخليقة والسقوط والننى من الفردوس ،

واستعار من القصص الشعبي الذي كان يدور حول مأساة آدم وحواء ، ولكن هذه القصص جميعا نسيت أو كادت وبقيت قصته لبلاغتها ودلالة صورها وتشبيهاتها واتساعها لتلك الدراسات المنوعة التي أشرنا إليها .

يقول الشاعر دريدن أن الشيطان هو إبطل مالمحة « الفردوس المفقود » دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الأدبيون رأى دريدن في هذه الملاحظة ، فان ملتون قد حول التفات القراء إلى الشيطان بما ألقاه على لسانه وما شرحه من مزاحمة ومواقفه ، وهو لا يعفيه من الدم واللعن والاستنكار ، ولكن عباراته التي يلزمها ويستنكر بها فعاله إنما تأتي مجازاة للعرف الشائع الذي يتشابه فيه كل قائل ، على حين تبرز الأعمال والأقوال التي ينسبها إليه أو يضعها على لسانه بروزا قويا موفور النصيب من عناية الشاعر وإعجابه ، وسر — مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين — أنه كان ثائرا ووجد في تمرد الشيطان فرصة للإفصاح عن حجج الثورة ودواعيها ، وربما ظهر من دراسة الشيطان في قصيدة ملتون أنه يمثل إشارل الأول في بعض الخلال كما يمثل كرومويل في حالات أخرى . غير أنه كان يمثل شارل الأول في الخلال التي يعيها الشاعر ويضيفها إلى خباثت الشيطان ومساوئه ، ويمثل كرومويل في الصلابة والجرأة والاعتزاز بالنفس ، وفي مجموعة تلك الخلائق التي جعلته يطلب المكان الأول في جهنم ولا يقنع بالمكان الثاني في السماء .

ويلقى ملتون على لسان الشيطان أنه يرثى للملائكة الذين يحاربونه في صف الإله وهو الذي غضب لهم وأنف من المهانة التي تلحقهم بتفضيل بني آدم عليهم ، وأنه لولا صواعق السماء لما طمعت جنود السماء في الغلبة عليه . وتخيّل ملتون شيطانه في بعض مواقفه فانه سلطان شرقي يستوى على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه وأعوانه ، وتخيّله في أكثر المواقف على هيئة المغلوب الذي يؤسف على هزيمته ولا تراد له إلا لأنه قضاء لا مرد له من الله . وقد تضطرب صور الشيطان بين موقف وموقف إلا صورة واحدة تثبت له في جميع مواقفه ، وهي الصورة التي ترضى الشاعر حين

يتخذ لسانا ناطقا بحجج المتمردين وحين يتخذ شبحا يحمله أوزار الطغاة وذوى الجبروت ، فان ملتون هو ملتون فى الحالتين ، وان بدا الشيطان فى صورة مضطربة كلما ساءه أن يمثل الحالتين ولا يندر أن تتقابلا مقابلة النقيضين .

ولعل القول الأصح أن الاختلاف بينهما إنما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين . فقد كان الفرق بين كرومويل وشارل الأول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكنهما فى الطبائع الشخصية لا يتقابلان هذا التقابل على طرفى الميدان ، بل يتقاربان تقارب الأشباه والنظراء .

* * *

وفى هذه الأسطر محل لأديب من معاصرى ملتون يقتحمه اقتحمًا بحكم المعاصرة والاشتراك فى الحرب الأهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له إلى جوار ملتون بغير هذه المعاصرة وهذه المناسبة ، ونعنى بهذا الأديب جون بنيان Bunyan مؤلف رحلة الحاج والحرب التى شنها شدائى على إبليس . وإبليس غاصب محتل لمدينة الروح الإنسانية يحاصره عمانويل ابن بانى المدينة شدائى — اسم من أسماء الله عند العبريين — ثم يستولى عمانويل على المدينة ويتغلغل فيها إبليس وجنوده بالمكر والدسيسة ويستردها جميعًا ما عدا قلعتها المحصنة وهى ضمير الإنسان المؤمن بكفارة الخلاص .

* * *

أما الشيطان الذى يلى شخصية إبليس فى الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فوست التى ألفها شاعر الألمان الأكبر جيتى (١٧٤٩ — ١٨٣٢) وجعل فيها للشيطان مفستوفليس دورا بين الأرض والسماء وبين الخالق والمخلوقات غير الدور الذى تقدم فى رواية مارلو . فان مفستوفليس فى رواية جيتى هو بعزبوب نفسه وليس زميلا له أو تلميذا من تلاميذه ، ودوره فى هذه الرواية يعم ظواهر الوجود كله ولا تحده المهمة التى ينسبها لها فوست وأمثاله .

وهو يصف نفسه مرة بأنه « جزء من القوة التى امتزجت بالسوء قديما ولكنها لا تفتأ تصنع الخير » .

وَيَصِفُ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخْرَى بِأَنَّهُ الْقُوَّةُ النَّافِيَةُ الَّتِي تَقُولُ « لَا » أَمَامَ كُلِّ إِيجَابٍ .

وَيُوصِفُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَأَنَّهُ الْمَفْسُدُ الَّذِي يَتَخَلَّلُ مِفَاتِيحَ الْمَعْرِفِ بِالزَّوَائِدِ وَالْعَوَائِقِ كُلَّمَا انْتَضَمَتْ عَلَيْهَا نَعْمَةٌ مِنْ نَعْمَاتِ النِّظَامِ .

وَيَقُولُ مَفْسُتُوفْلَيْسُ لِلدَّكْتُورِ فُوسْتِ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ عِبْثٌ وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْخَيْرِ أَلَّا يَوْجَدَ . فَيَقُولُ فُوسْتِ : وَالْآنَ عَلِمْتَ مَا تَرِيدُ .. إِنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَعْدِمَهُ بِجَمَلَةٍ فَأَنْتِ تَشِيعُ الْعَدَمَ فِيهِ بِالتَّجْزِئَةِ أَوْ تَبِيعَهُ بِالْمُفْرَقِ !

وَقَدْ وَضَعْتَ قِصَّةَ فُوسْتِ عَلَى غَرَارِ قِصَّةِ أَيُّوبَ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ ، وَظَهَرَ الشَّيْطَانُ فِي أَوَّلِهَا يَقُولُ لِلَّهِ أَنْتَ خَلَقْتَ الْعَقْلَ لِلْإِنْسَانِ تَمِيزُهُ عَلَى الْبَهَائِمِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَخْدِمُهُ لِيَصْبِحَ دُونَهَا فِي الشَّرِّ وَالْجَهَالَةِ ، وَإِنِّي لَا أَبَالِي أَنْ أَشْقَى بَنِي آدَمَ فَإِنَّهُمْ مَتَكْفِلُونَ دُونِي بِأَشْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ يَقَعُ الرِّهَانُ عَلَى رُوحِ الْعَالَمِ فُوسْتِ الَّذِي يَأْتِسُ مِنَ الْبَحْثِ وَالْعِلْمِ وَأَبِى إِلَى الْبُؤْسِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ مَعَهَا مَذَاقًا لِلْحَيَاةِ ، فَيَتَّفِقُ الشَّيْطَانُ وَالْعَالَمُ عَلَى شُرُوطٍ كَالشُّرُوطِ الَّتِي تَقَدِّمْتَ فِي رِوَايَةِ مَارْلُو ، وَيَأْخُذُهُ الشَّيْطَانُ إِلَى وَكْرِ السَّاحِرَةِ لِتَعْيِيدِهِ بِأَشْرَافِهِ — أَيْ إِشْرَافِ الشَّيْطَانِ — إِلَى الشَّبَابِ . فَيَعَايِفُ الْعَالَمَ ذَلِكَ الْوَكْرَ وَيَسْأَلُ مَفْسُتُوفْلَيْسَ : أَمَّا مِنْ وَسِيلَةٍ غَيْرِ هَذَا السَّحَرِ الْقَبِيحِ لِتَجْدِيدِ الشَّبَابِ ؟ فَيَجِيبُهُ مَفْسُتُوفْلَيْسَ : بَلَى ! هُنَاكَ وَسِيلَةٌ أَهْدِيكَ إِلَيْهَا .. تَذْهَبُ إِلَى الْغَيْطِ وَتَحْرُثُ وَتَكْرُثُ وَتَأْكُلُ الْقَمَّةَ الَّتِي تَجِدُهَا وَتَحْصِرُ الْحَيَاةَ فِي أَضْيَاقِ حُدُودِهَا وَتَأْتِي عَلَيْكَ الثَّمَانُونَ وَأَنْتِ فِي غَرَارَةِ الشَّبَابِ .

قَالَ فُوسْتِ : لَسْتُ بِهَذَا ... قَالَ مَفْسُتُوفْلَيْسَ : إِذْنِ لَا مَنَاصَ مِنَ السَّحَرِ وَالسَّاحِرَةِ ، وَسَأَلَهُ فُوسْتِ : وَلِمَ السَّاحِرَةُ ؟ فَأَجَابَهُ الشَّيْطَانُ : إِنَّهَا صِنَاعَةٌ صَبَرَ طَوِيلٌ لَا أَطِيقُهُ ، وَلَا بَدَلَ كُلِّ صِنَاعَةٍ مِنْ أَحْكَامِ .

وَتَبَدَأَ الْغَوَايَةَ بِرُؤْيَا الْفَتَاةِ مَرْجَرِيَّتِ عَائِدَةٍ مِنْ كُرْسَى الْإِعْتِرَافِ فَيَشْتَبِهَا فُوسْتِ وَيُرَوِّضُهَا لَهُ الشَّيْطَانُ وَيَتَوَاعَدَانِ عَلَى الْلِقَاءِ بَعْدَ أَنْ تَنَامَ أَمَّا بِجَرَّةٍ مَخْدُورَةٍ ، فَتَمُوتُ الْأُمُّ بِالْجَرَّةِ وَتَحْمِلُ مَرْجَرِيَّتِ ثُمَّ تَلِدُ فَتَقْتُلُ وَلِيدَهَا ،

وفي خلال ذلك يأتى أخوها الجندى فيطلع على سر هذه الفابجعة ويذهب إلى فوست ليقتله فيقتله فوست فى مبارزة بينهما ، ثم يغلبه الحنين فيعود إلى مرجريت ويعلم أنها سجينه وييسر لها وسائل الخلاص من السجن فتأتى وتتقبل العقوبة المنتظرة للتكفير عن جريمتها ، ثم تصعد روحها إلى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت . وتهتف الملائكة : لقد نجحت باذن الله !

ويمضى فوست فى التجربة أخرى غير تجربة العشق والغواية ، فيرتفع فى عيني الملك وينال ما يرضيه من السلطان بالخطوة لديه ، ويطعمه الشيطان فى المزيد من الجاه والملك فيعاوده الحنين إلى العشق وغواياته ، ويسوم شيطانه هذه المرة أن يبعث له الفتاة (هيلينا) من الأموات فيبعثها ويأتى إليها إليه ، ولكنها تراوغه إذ يضمها إلى ذراعيه ، فلا يجد منها غير جلبابها فى يديه !

وكان فوست بعد مصرع مرجريت قد آل على نفسه ليدوقن كل ألم يبتلى به بنو آدم لينسى بجنائته على الفتاة البريئة وعلى أمها وأخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الندم فيشغله عنه بدسائس القصر وضجته ، ويوشك أن ينسيه الندم لولا سبابة ترين على صدر العالم الحكيم فيزهد فى كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن هذه الصغائر التى تلهيه . ويسأل : أين هى السعادة فيعلم أنه لم يجدها قط فى لهوه الأول ولا فى لهوه الأخير ، ثم يلوح له أن يستخدم عامه فى تعمير الخراب وإصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وأنه كذلك إذ تحين ساعته وتخرف روحه فيهم الشيطان بقبضها للهبوط بها إلى الجحيم ، وتنزل الملائكة من السماء فتنازعه عليها وتقول له إنه قد خسر الرهان . لأن فوست على ما اقترف من جريمة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينه إلى النور ومات وهو متجه إليه .

* * *

وأغرب الشياطين الشعرية كافة ذلك الشيطان الذى ابتدعه خيال وليام بليك بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا بأغرب من خيال الشاعر الذى ابتدعه . فانه شاعر فى العصر الحديث.

يدين جدًا وصدقًا بالمذهب الثنوى ومذهب المعرفين Gnostics الذى ذهب معتقدوه بذهاب القرون الوسطى .

كان بليك من أتباع المتنبيء السويدى سويدنبرج ، وكان سويدنبرج من أصحاب الرؤى المصدقين لما يعترهم من حالات الوجد والنشوة الدينية ، ووقر فى خلده بعد أن جاوز الخمسين فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يتلقى الوحي من عالم الغيب ، فاعتزل وظائف الدولة وأعلن خروجه على المذاهب المتبعة وبشر برسالته التى سماها المسيحية الحققة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيراً يخالف التفسيرات التى اعتمدتها الكنائس الكبرى ، ثم هجر وطنه وأقام بالعاصمة الإنجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢) .

ودرج بليك فى حجر أسرة انجليزية تدين بمذهب سويدنبرج ولكنه انقلب عليه ولم يرجع إلى مذهب من مذاهب الكنائس المعروفة ، بل وراح يستقل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره وإلهامه ، ولم يكن على علم بشيء من اللاهوت ولا من معارف عصره ، لأنه لم يدخل مدرسة منتظمة فى صباه .

وشيطانه يصبح أن يكون فكرة مجردة كما يصبح أن يكون روحاً إنسانياً أو ملكاً من الملائكة المغضوب عليهم ، بل يصبح أن يكون عنواناً يضعه الشاعر على كل « شخصية » مفروضة تنتمى إلى الشر والخباثة ، وعنده أن الشر كل الشر هو الصرامة فى الأوامر والنواهي والتشدد فى المحلات والمحرمات . فكل رب جاء عنه فى الأساطير الغابرة والديانات الأولى وصف العبوس والجهامة واتسم فى ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهو شيطان يترقى فى الشيطانية على حسب قسوته وصرامته إلى منازل الآلهة الوثنيين المنعوتين بآلهة الشر أو آلهة الظلام . ومن أوهامه التى لا يدرك أحد أهمى أوهام شعر أو أوهام اعتقاد ثابت — أن روح الشاعر ملتون محلت فيه لتكفر عن خطيئتها فى تصوير السيد المسيح وتصوير إبليس ، وأن الكتب القديمة أدخلت فى أذهان الناس أن الإنسان ذو حقيقتين جسدية وروحية ، وأن نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وأن الله يعذب

الإنسان عذاب الأبد لمطاوعته بواعث جسده ، وممكنه من الحق الذي يناقض هذا أن جسد الإنسان غير منعزل عن روحه لأن حواس الجسد هي منافذ الروح إلى المعرفة ، وأن النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل إلا الحدود التي تحيط بذلك النشاط ، وأن النشاط هو الفرح الأبدى وما عداه كسل وإحجام عن الحياة .

ولم ينشر بليك مؤلفاته لأنه كان يمقت الطباعة وينظرها بأدوات من اختراعه للنقش والرسم والكتابة يرى أنها أليق بالوحى الروحاني من تلك المطبوعات الصناعية . وقد جمعت آثاره بعد موته من قصاصات مشعثة يدون فيها خواطره ويتم بعضها ويترك بعضها مبتوراً في نهايته أو مبتوراً في أوله ووسطه ، وهذه شذرة منها تعود أن يدونها بعنوان خطرة مذكورة ، وفي الخطرة التالية عن الشيطان والملك يقول :

« رأيت يوماً شيطاناً في لهيب النار يرفع هامته إلى ملك يجالس على سحابة ، ويصيح به : اسمع يا هذا . ان عبادة الله هي تمجيد هباته لغيرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص أعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الذين يحسدون العظيم أو يفترون عليه إلا أعداء لله . فلا إله غير ذاك » .

« وسمع الملك مقاله فازرق ثم ملك بجأشه فاصفر ثم سكن فابيض وعلته حمرة وابتسامة ، وقال : يا عابد الصنم ! أليس الله بالإله الأحد ؟ أليس الله قد تجلى في عيسى المسيح ؟ أليس المسيح قد بسط بركته على الوصايا العشر ؟ أليس سائر الناس حمقى وخطاة وعدماً ونكرات ؟ » .

ثم يأتى بليك على لسان الشيطان رداً يقول فيه : « إذا كان المسيح أعظم إنسان فأحبيه حبك للإنسان الأعظم » .. ثم يحكى له الشواهد من أعمال المسيح ناقضاً ما يفهمه الأكثر من الوصايا العشر ، ويختم هذه الشواهد قائلاً : « لقد كان عيسى فضيلة كله ، لأنه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود » .

وكل ما ألقاه بليك على ألسنة الشياطين فهو من قبيل ما تقدم ، مع

التناقض الذى لا يثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالأوامر الصارمة والفضائل الجافية ، والتفكير المنتظم ، وقد قال عن الملائكة أنها تحسب أنها دون غيرها تتحدث بالحكمة ، وكل من يفكر على قياس مطرد خليق أن يغتر هذا الغرور ، وأكثر التفات التى تركها تحمل عنوان الخطرة المذكورة وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان المقرن بين السماء والجحيم ، وينعقد قران السماء والجحيم ولقاء الملك والشیطان فى رأيه بالعمل الذى يصدر من الحب ونشاط الجسد منبعثاً بوحى الفطرة الصادقة .

فالشیطان على هذا الاعتبار بجيوش من انشياطين يجسمها القارىء أو ينظر إليها كأنها معانى الشاعر فى قريحته مطلقة بغير تجسيم وبغير شخصية مرتسمة فى الحس أو الخيال .

* * *

وبعد شیطان بليك — أو شياطينه — لا تحفظ تواريخ الأدب الغربى صورة لشیطان شعرى عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شیطان كردوتشى شاعر الثورة الإيطالية (١٨٧٠ — ١٩٠٧) وصاحب جائزة نوبل قبل وفاته بسنة .

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كردوتشى أن تكون نشيد صلاة . . . وقد سماها هو نشيداً ونظمها على وزن التراتيل التى تنشد فى الصلوات ، وقال فيها أنه لا يحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وأنه يحيى إبليس لأنه قاهر الكهان ورافع علم الثورة ، ويناديه : لا تهرب منى حين أناجيك : فانى أود أن أنطلق إليك بروحى ولا يكفينى ، أن ألتقى بك فى الشعر والخيال ، ويختم النشيد قبل المقطوعة الأخيرة قائلاً : « إنك أيها الشيطان لعظيم . . . إنك تعبر البحار وتطوى الأرضين . . . إنك تنفث الدخان كالبركان . . . وتجوس خلال الديار ، وتمضى حيث تشاء كما تشاء » .

وانطلاق الشيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند

كردوتشى الثائر على طغاة الدنيا والدين ، ولا يبعد أن يكون الشاعر كما قال ابن وطنه جيوفانى بابيني — متأثراً بأستاذه ليو باردى فى قضيدته عن إله الشر أهريمان صاحب القضاء النافذ فى الوجود كله ، منفرداً — فى رأى ليو باردى — بغير شريك من أرباب الخير أو ملائكته فى الزمن القديم أو الزمن الحديث .

* * *

ونحن فى هذه العجالة يجزئنا ما تقدم فى باب شياطين الشعراء التى عمل فيها الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفسية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم كل ما يقال عن إبليس أو عن الشياطين كما يعتقدونها أتباع المذاهب منذ القرون الوسطى ، فقد كان أكثر الشعراء يجربون قرائحهم فى مأساة آدم والشيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العلم الزاخر إذا عرفنا أن رجلاً مثل هوجو جروتوس (١٥٨٣ — ١٦٤٥) الملقب بأبى القانون الدولى قد جرب قلمه وقرينته فى هذه المأساة ، وكان معاصراً للشاعر ملتون فانتشرت قصائده إلى جانب القصائد الخالدة التى نظمها ذلك الشاعر المعدد اليوم فى الذروة بين أشعر شعراء العصور .

وبعد زهاء قرنين أوحى اسم هوجو إلى سمييه الفرنسى الكبير فكتور هوجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) أن يجرب قلمه وقرينته على نمطه ، فنظم قصائد فى خاتمة الشيطان ونادى بموته ولحاقه إبليس بجاحد ربه بين عقول كالحفاش الذى يخاف النور أو البومة التى تستهدى الظلام والغراب الذى يسلم الفضاء للنسر والعقاب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التى لا تبلغ الهدف إلا من قذاع الموت ! ودون ذلك كله وتنحسر أشواط الأبالسة والشياطين .

إلا أن هذا المحصول الزاخر لا يزيدنا لوناً من ألوان الصورة فى ضمير المؤمن أو فى قريحة الشاعر ، وهذا الذى تحريناه فى إهمال ما أهملناه والإلمام بما أشرنا إليه . بيد أننا لا نستطيع أن نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشاعر الفرنسى بودلير صاحب ديوان أزهار الشر وناظم القصائد فى الابتهاال إلى الشيطان « أحكم الملائكة الذى سرق منه القضاء ثنائه والذى سجل عليه

الطرد والحرمان من لا يزال يخطيء ويغلط » . . فان هذا الشيطان عارض
نفساني يصور الانعكاس في السريرة المشوهة فتتعمد التوجه إليه على سبيل
النقمة والنكاية وتصلي إليه ليشفق عليها كأنها تستجدي الشفقة الإلهية -
عكسا - بلسان اليأس والكبرياء .

وفيما عدا شيطان بودلير لا نرى في هذا الفصل موضعاً للشياطين التي
تخيّلها الشعراء ولم تدخل في عداد الصور الخلقية وخواجج الوجدان في الإنسان
منفرداً أو جزءاً من أجزاء الجماعة . فالشاعر الروسي لرميتوف خلق في
إحدى قصصه شيطانا لا يعدو أن يكون إنساناً متكرراً يزاحم الناس على العشق
والشهوة ، والشاعر الإنجليزي بيرون خلق شيطانا في قصيدته « رحلة الشيطان »
لا يعدو أن يكون مخبر صحيفة يروي للقراء ما يروي في المجالس النيابية
ومجالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليجري على
لسانه كلاماً يجريه بعض الشعراء الآخرين على ألسنة الطير والحيوان أو على
ألسنة الشجر والجماد ، وكل أولئك لا يأتي فيه شيء عن جبلة الشيطان غير
حروف اسمه التي تغني عنها حروف اسم من أسماء الحيوان أو الجماد .

أما الشيطان الذي نعرض هنا لذكره فهو الشيطان الذي يحوم في
النفس الإنسانية وبين الجماعات البشرية في تقاليدها وموروثاتها ومقاييسها
لخبراتها وشروورها ، وهو الشيطان الذي يطيف به خيال الشاعر
معبراً عن شعوره ، وإن لم يكن من عقائد دينه ، كالشياطين التي سميت
بأسمائها في الأدب العربي : هبيد ومسحل والهوجل وجهنام ، أو كالشياطين
التي يعتقدونها المتدين ويفتن الشاعر في تصويرها لامتيازه بملكة الخيال وملكة
الرمز والتشخيص . . فهذه الشياطين قوى مشتركة في طبائع الناس وقيم
نفسية يقومها الناظرون في الأخلاق والطباع ، ولو رفعناها منها بأسمائها
لبقي مكانها متطلباً منا أن نسميها بغير تلك الأسماء ، لأنها لا تقبل السكوت
عنها ولا تغفلها الحياة إن أغفلها اللسان (١) .

(١) أهملنا في هذا الفصل ما كتب على سبيل الهزل في قصص الفكاهة كقصّة رابليه الفرنسي
وبن جونسون الإنجليزي ، فانهما صورا الشيطان غرا مخدوعا ليبالغا في دهاء الفلاحين أو المراهقين ،
ولم يقصدا الجد في تصوير شيطان معلوم أو تصوير الخلائق الشيطانية على العموم .

في الأدب العربي

يندر في الأدب العربي تمثيل الشياطين الشعرية من قبيل تلك الشياطين التي حفلت بها ملاحم الشعراء الغربيين وقصائدهم ، لأن شعراء العرب لم ينظموا الملاحم التي يتمثل فيها أبطالها بملاحمهم الظاهرة وملاحمهم الخفية . ونحسبهم لو نظموا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هذا الشأن الذي أصابه في أدب الغرب شعراً ونثراً . لأن الأدب العربي لا ينسب إلى الشيطان دوراً في قصة الخليقة والحلاص كالدور الذي ينسب إليه في عقائد الأدباء الغربيين ، فإذا نظم الشاعر العربي ملحمة عن الخليقة لم يكده يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسواس الذي يطراً على كل سريرة آدمية في ساعته كما طراً على سريرة آدم أو سريرة حواء .

وإذا تخيل المتخيل صفة للشيطان في كلام شاعر عربي فلا نظمه يخرج منه بصفة غير تلك الصفة التي لخصها أبو نواس في خليط من الخبث والحماقة . لأنه

تاه على آدم في سجدة
وصبار قوادا لذريته

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لأنفسهم ذلك الحوار الذي دار بينه وبين أبي نواس : حوار من يستعين بابليس على شهواته ويتوعد إبليس أن يتوب عن المعاصي إن لم ييسر له ما يشتهي ، وقد كان إبليس على هذه الصفة عند الشاعر الذي قال فيه :

النار عنصره و آدم طينة والطين لا يسمو سمو النار
إبليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار

وذلك هو بشار بن برد الذي كان يتظرف بأمثال هذه البدوات مولا يأتي فيها بجديد من عنده ، لأن المفاضلة بين العنصرين أقدم من بشار

وأقدم من كل ما قاله الشعراء المسلمون عن إبليس ، ولم تخطر صفة إبليس على بال أحد من المتقدمين في الإسلام إلا كان يعلم أن إبليس من عنصر النار .

على أن موضع إبليس من رسالة الغفران لأبي العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشعراء الغربيين . فقد ذهب فيها إلى أودية ليست كأودية الجنة فسأل صاحبه بعض الملائكة : ما هذه يا عبد الله ؟ فقال له : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في الأحقاف وفي سورة الجن وهم عدد كثير . . ويسأل أحد العفاريت عن أشعار المردة فيقول له : لقد أصبحت العالم بجدة الأمر . وهل يعرف الإنس من النظم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ؟ ثم يسأله عن اسمه فيقول انه يدعى بالخيثور وأنهم من غير ولد إبليس ، وأنهم من الجن الذين سكبنوا الأرض . قبل آدم عليه السلام .

ويلقى في جنة العفاريت شاعراً يسمى أبا الهدرس فيسمعه من نظمه قصيدة يقول فيها عن أيام طاعته لإبليس :

نحارب الله جنودا لإبليس	يس أخى الرأى الغبن النجيس
نسلم الحسك إليه إذا	قاس فرضى بالضلال المقيس
نزين للشارخ والشيخ أن	يفرغ كيسا في الحنا بعد كيس
ونقتري جن سليمان كي	نطلق منها كل غاو حبيس
ونخرج الحسناء مطرودة	من بيتها عن سوء ظن محديس
ونخدع القسيس في فصحه	من بعد ما منى بالأنقليس
ونعجل السعلاة عن قوتها	في يدها كشح مهابة نهيس
نادمت قابيل وشيئا وها	بيبل على العاتقة الخندريس

وفي أقصى الجنة يلقون الخطيئة والخنساء ، ويسألون الخنساء عن شأنها فتقول : أحببت أن أنظر إلى صخر فأطلعت فرأيت كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه فقال لي : لقد صح مزعجك في

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

قال أبو العلاء عن صاحبه : « فيطلع فيرى إبليس لعنه الله وهو مضطرب في الأغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية ، فيقول : الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه ، لقد أهلكك من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صناعتي الأدب أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بثس الصناعة ، إنها تهب غفة — أي بلغة من العيش لا يتسع بها العيال ، وأنها لمزلة بالقدم . وكم أهلكك مثلك ! فهنئاً لك إذ نجوت فأولى لك ثم أولى . ان لي إليك حاجة فإن قضيتها شكرتها لك يد المنون . فيقول : أنى لا أقدر لك على نفع ، فإن الآية سبقت في أهل النار ، أعنى قوله تعالى : ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا إن الله حرمهما على الكافرين .

فيقول إبليس : إني لا أسألك في شيء من ذلك ، ولكني أسألك عن خبر تخبرني . أن الخمر حرمت عليكم في الدنيا وأحلت لكم في الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات ؟ فيقول : عليك الهلة . أما شغلك ما أنت فيه ؟ أما سمعت قوله تعالى : « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » . . فيقول : وإن في الجنة لا شربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فإن له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلني دون الشعراء وهو القائل :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

فلا يسكت من كلامه إلا ورجل من أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار ، وإذا هو بشار بن برد قد أعطى عينين بعد الكمه لينظر إلى ما نزل به من النكال . .

* * *

وكل ما جدد بعد المعرى من كلام يدخل في باب القصة من الأدب ويذكر فيه الشيطان — فهو تلك القصص التي جمعت باسم ألف ليلة

وليلة واقتبس روايتها ما تداولته الألسنة من أخبار السحرة وتسخير المردة
وقيام الجان على ارضباد الطلاس أو حبسها في الأغوار والقماقم ، وهى
لا تأتى بابتداع أو اختلاف أو زيادة على ما اعتقده الناس ونظمه الشعراء .

* * *

ولم يطرأ على الأدب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القرن
العشرين . ثم نجمت فى أوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع فى الاطلاع
على آداب الأمم والبحث فى موضوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الأمم
ومن موضوعاته الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعانى المجردة
والعناصر الطبيعية وأرواح الغيب وكائناته المشبهة بتماثيل الأحياء .

ونحن فى هذا الباب خاصة لا نبحث بحث المؤرخين أو النقاد
الأوربيين ، وإنما ما أحسنناه واختبرناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف
فى هذه الأغراض مما عالجناه وانبعثنا إليه بوحى الإطلاع وعدوى الخواطر
التي يوحىها .

* * *

أول ما خطر لنا أن نقارن بين التشبيهات والمعانى المجسمة فى اللغات
الأوربية واللغة العربية ، وكتبنا فى هذه المقارنة عن الكائنات الخفية
وعن عجائب المخلوقات وعن الأساطير ، مما يطلع عليه القارىء فى كتاب
« الفصول » ومجمع الأحياء ، وأحسنا الحاجة إلى تصوير بعض العواطف
بصورتها الشعرية التمثيلية ، فأخذنا فى وقت واحد فى نظم قصيدة عن
سباق الشياطين وتأليف كتاب نسميه « مذكرات إبليس » ونخصص كل
فصل منه لغواية من الغوايات كالعشق الأثيم والسرقة والبغى والطمع
وسائر هذه الآثام التي تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك بحوالى
سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم الغرب وأساطيره .
فأما سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التي نظمناها فى موضوعه ، وأما
مذكرات إبليس فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الأعور بن إبليس
الموكل بالعشق الأثيم ، ثم بقيت النية مترددة حول هذا المطلب حتى تحولنا :

عنه بعد الحرب العالمية الأولى إلى موضوع القصيدة التي سميناها ترجمة شيطان ونشرت في الجزء الثالث من الديوان .

وحوالى هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقري الأستاذ عبد الرحمن شكرى كتابه النثرى الذى سماه « حديث إبليس » وقال فى مقدمته : « قد بدأ يكثّر فى آداب اللغة العربية البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها ، ولكن كل ذلك لم يزل بعد قطرة لا نعرف إن كان وراءها سيل أتى . وهذا الكتاب فيه شىء كثير من البحث النفسى والتساؤل والشك والسخر الذى هو محرك يحرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن تلك الدنيا التى فى كل نفس ، فى فصل نصيحة إبليس مثلاً ترى تحت السخر المودع فى هذا الباب ما أرمى إليه من معائب النفوس الجامدة القبيحة التى تشبه مياول الطرق ، وقد جعلت إبليس ينصح بما ينبغى الانتهاء عنه » .

وقد أطلعنا بعد الحرب العالمية الأولى على محاولات متنوعة فى هذه الأغراض لم يكن منها ما بلغ فى جودته مبلغ العمل الفنى خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، ومنها ما نظم فى مصر وما نظم فى غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان « عبقري » للشاعر السورى الأستاذ شفيق معلوف من صفوة أدباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره فى الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ وأعيد طبعه فى سنة ١٩٤٩ ثم ظهرت قصة الشهيد لزميلنا الكاتب الموهوب الأستاذ توفيق الحكيم ، وهى قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ وتعد على صغرها من أجود ما كتب فى هذا الغرض فى جميع اللغات .

* * *

أما قصيدة سباق الشياطين فخلاصتها أن إبليس جعل لتلاميذه جائزة يناها من يعرض أعماله ويثبت للمال من الشياطين قدرته على السبق فى التضليل والإغواء . فانبرى سبعة من الشياطين يتنافسون عليها وهم : شيطان الكبرياء ، وشيطان الحسد ، وشيطان اليأس ، وشيطان الندم ، وشيطان الحب ، وشيطان الكسل ، وشيطان الرياء ، فاستحقها هذا الشيطان

الأنجير — شيطان الرياء — ولكنه جرى على عادته فأظهر الزهد فيها وتنحى.
عن تناولها بعد اشتراكه في المنافسة عليها فخطبه إبليس :

قال تأبأها ولولاك انجلى غيب الأرض فكانت كالنعم
دونك الدنيا اتخذها منزلا وتولى اليوم أبواب الجحيم

* * *

وقصيدة ترجمة شيطان هي قصة شيطان ناشئ ستم حياة الشياطين
وتاب عن صناعة الإغواء لهوان الناس عليه وتشابه الصالحين والطالحين
منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحفه فيها بالخور العين
والملائكة المقربين . غير أنه ما عتم أن ستم عيشة النعيم ومل العبادة والتسبيح
وتطلع إلى مقام الإلهية لأنه لا يستطيع أن يرى الكمال الإلهي ولا يطلبه
ثم لا يستطيع أن يطلبه ويصبر على الحرمان منه ، فجهر بالعصيان في الجنة
ومسخه الله حجرا فهو ما يرح يفتن العقول بحال التماثيل وآيات الفنون ،
واستضحك إبليس بين جنده يوم انتهى المطاف بتلميذه إلى هذه الخاتمة
فقال :

ما أرى هذا الفتى من دمننا
ومتى استغوى الشياطين الشرك
أترى شيطانة من قومنا
أغوت الأملاك فهو ابن ملك

... ..

فتلاحى القوم ثم استضحكوا
ودعنا مازحهم شر دعاء
قال : فلتسلكه فيمن سلخوا
أيها المولى سبيل الشهداء

* * *

والسمة التي يتسم بها إبليس في رسالة الأستاذ عبد الرحمن شكرى..
هي سمة النقد الساخر تسرى في الحديث من أوله إلى ختامه ، ويدل بعضها

عليها ، كقول إبليس عن أخلاق الإنسان والحيوان : « إننى أرى فى الحيوانات العجم نخصالا هى فى الإنسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء والأمانة ما ليس للإنسان ، وللخيل من الود والولاء ما لا يبلغ بعضه الإنسان ، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ما ليس له ، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له ، ولو فطنتم يا بنى آدم لرأيتم أن تزوجوا بناتكم من البغال والحمير والكلاب والقرود لكى يكتسب نسلهن بالوراثه من حميد صفات هذه الحيوانات . . ولا تحسب أن النساء ينزعجن من هذا الزواج فانهن قد ألهمن فضائل الحيوانات وهذا تفسير ميلهن إلى صغار الكلاب والقرود . . » .

أو كقول أحد الشياطين : « . . فالتفت إبليس إلى وقال : سمعت أحد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين وهو الملك الذى يحصى ذنوب الناس : ما لي أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك عافاك الله من الناس ، فاني أستخدم ريش جناحي كما تعلم فى كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحي وأتلفته وأنا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة نتفت من جناحي ريشة أخرى حتى نفذ ريشى ولم تنفذ ذنوب الناس . » .

ونختم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوجود وغرور الإنسان ، ونصيحة من روح الأبد يقول فيها للإنسان الذى يحاطبه : « اذهب إلى مكانك من الأرض ولا تنس عظم الوجود فإن إحساسك بعظمته فيه معانى العباد كلها » .

* * *

ونظم شاعر المهجر البرازيلي الأستاذ معلوف ديوان عبقر مقسما إلى قصائد يروى فى كل قصيدة منها نبأ عن ولد من أولاد إبليس أو بعض الشياطين ، فيقول مثلاً عن الشيطان « داسم » إبليس النقائص :

وجاءنا ثانى ، أبناء عزريل

سحنة شيطان ، فى منكبي غول

وقال في دهاء ، ويك أنا الكاسى
بالحبث والرياء ، نقائص الناس

* * *

لما أمت الأرض في زورة
أستعرض النقائص العارية
ألفيتها والناس قد مزقوا
أجسادها في فتنة دامية
فرحت أكسو بيلدى عريها
بجلل براقة زاهية

* * *

فاندست الكبرياء ، تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الآباء ، غلغل وجه الغضب
وانقلب العناد ، بين الورى حزما
وصار الاستبداد ، فى عرفهم عزما
ويقول عن الأعور إبليس الشهوة
وذاك أعور ، أطل ينظر ، من ظاهر الهوة
وقال انى أنا ، حامى ذمار الحنا ، والعهر والشهوة
شرارتى فى العيون ، حريقة فى الدم
أنا مشر الجنون ، والفم لصق الفم
ما اتكأ العاشقون إلا على معصمى
كم ذاق خمري عاشق فالتوى

معربدا فى سكرات الهوى

مهـدما ببعضه بعضه

وهو على الأنقاض يبنى السوى

ونختم الديوان بقصيدة عن العبقريين قال فيها عن أهل الخلود من أبناء

عبقر :

وثمة استجليت صوتا دوى
ولم أجد لذهولى سوى
بجماجم أرواحها غلغلت
تصخب فيها من خلال الكوى
فصاحب العظام ، أعطى الذى أخذ
لم تظفر الأيام ، منا بغير الفلد
فكن عش الغرام ، وصرن مأوى الجرد
لكنها أحلامنا لم تنزل
ترقص سكرى فوق غلف المقل
حاملة للناس خمر الهوى
مشعة خائف كؤوس الأمل

والغالب على ديوان عبقر روح غنائية يسعدها خيال موفق فى كثير
من تشخيصاته وما ينطق به لسان الحال من تلك الشخصوس الخيلة .

* * *

وهذه الجوانب المتعددة من صور الشيطان فى الأدب العربى الحديث
تم من جانبها الفنى بقصة « الشهيد » الأستاذ توفيق الحكيم ، لأنه أعطى
الشيطان دوره المحتوم فى مسرح الكون ، وجعله كما هو فى الواقع دورا
لا حيلة فيه له ولا لأصحاب الأديان الذين يلعنونه ويستنكرونه . ولكنه
يلجأ إليهم ليتوب على أيديهم فلا يدرون كيف يقبلون توبته ، فان الخبر
المسيحى لا يملك أن يتصرف فى عقيدة الخطيئة والخلاص ، والربانى الهوى
لا يملك أن يتصرف فى مكان شعب الله المختار بين الأمم التى أضلها الشيطان
على اعتقاده ، والأمام المسلم لا يملك أن يتصرف فى التعوذ من الشيطان
الرجيم ، ويصبح إبليس يائسا : « وجودى ضرورى لوجود الخبر
ذاته . . . نفسى المعتمدة يجب أن تظل هكنا لتعكس نور الله » . . . ويكفى
إبليس فتساقط دموعه كالنيازك على رؤوس عباد الله ، فيها جبريل
عن البكاء ويحقيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط إلى الأرض مستسلما

« ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء . . . رددت صدها النجوم والأجرام في عين الوقت كأنها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : أنا الشهيد . أنا الشهيد . »

* * *

ومن الحق أن نلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان في الشعر العربي ، لم نثبته مع الصور السابقة لأنه من ألوان الرأي لا من ألوان التخيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الإهمال في هذا المطلب لأنه رأى يبيده صاحبه في حقيقة الشيطان .

ذلك هو رأى الأديب العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي ، ومجمله أن الشيطان هو الإنسان الذي يخدع غيره لغاية من غاياته .

لا يخدع المرء إنسانا لغايته

إلا إذا كان ذاك المرء شيطانا

وأما الشياطين والعفاريت فقد حدث الكتاب الكريم في ذكرها وأخطأ المفسرون كما قال في حساب المملكين :

غير أنى أرتاب من كل ما قد

عجز العقل عنه والتفكير

لم يكن في الكتاب من خطأ كلا

ولكن قد أخطأ التفسير

* * *

فهذا المطلب على حدائته في الأدب العربي قد أحيط من جوانب متعددة . وهو — ولا شك — لا يساوى نظائره الأوروبية في استفاضتها ولكنه يساويها في طبقها إذا أسقطنا من أدب الغرب ما استعاره من قصة الخليفة وما كان لهذه القصة من القداسة الدينية التي لم يخلقها ابتكار الشعراء والأدباء .

في العصر الحاضر

إذا أخذنا بإحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار إنتشار الأفكار والعقائد — جاز لنا أن نقول أن الحضارة العصرية أكثر الحضارات إيماناً بوجود الشيطان وعمله الدائم في النفس البشرية والبيئات الاجتماعية . فإن كلمة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات في كتابة الأوربيين العصريين ، ومنها ما يشتق من كلمة الشيطان بنطقها الشرقي ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول في العصر الحاضر . ولكننا سنرى مسألة الشيطان هذه من أقوى المكذبات لطريقة الإحصاء الآلية : طريقة الحكم على الأفكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات . فان كلمة الشيطان كانت علماً على « شخصية » الكائن الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغوياً لا تؤيد كلمة أخرى في مدلوله . لأنه يؤلف في كتابة واحدة بين الأعمال الشيطانية بجملتها ، ويفهم منه الكيد والخبث والمهارة والنفاق وحب الأذى وكل معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فانما تستخدم بمعناها هذا الذي انتقل من ألفاظ الأعلام إلى ألفاظ المعاني والصفات .

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة « مأمون » حين عبر بها عن سيادة المال والجشع ، فقد كانت الكلمة في اللغة السريانية علماً على رب يزعمون أنه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول اتلاميذه إنكم لا تستطيعون أن تخدموا سنيدين ، ولا تستطيعون أن تنالوا رضى الله ورضى مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقيدة السريان في مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير عن الجشع ومطامع الأشرار .

وبهذا المعنى المجازى تشيع كلمة « الشيطنة » فيما يكتبه أبناء الحضارة الأوربية الحاضرة ، وقد يكتبها الملحدون الذين ينكرون وجود الكائنات الغيبية كما يكتبها المتدينون الذين يؤمنون بوجود الشيطان ويختلفون في عمله (إبليس)

وفي مدى قدرته ، وكلهم في العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق إلى خيال السامع في القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل .

وقد ظهر في باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التي يقابل بها وصايا الله ، فجمعها في ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، وألا يعطى المرء شيئاً بغير جزاء ، وأن يتناول طعامه منفرداً ولا يدعو أحداً إليه ، وأن يقتر على أهله وأن يحتفظ بالفتات من مائدته ، والأسمال من كسائه وأن يقنطر المال عنده طبقة فوق طبقة . . . وهذه ردائل القرن الرابع عشر كما أحصاها بنوه بين الجلد والسخرية ، وأنها اليوم لفضائل العصر الذي يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والأنانية الفردية ، ومن أجلها تسمى الحضارة العصرية بالحضارة الشيطانية !

ومن البديهي أن المتحدثين عن الشيطان في حضارة العصر لا يقصدون جميعاً هذا المعنى المجازي ولا يقصرونه جميعاً على الصفات دون الأعلام والأسماء . فإن أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم — كما أسلفنا — يسمعون باسمه فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق إلى خيال السامع قبل بضعة قرون .

فهم يذهبون اليوم بصرع الجنون إلى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو رجل الدين ، وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم وما ينسبونه إلى الشيطان من إحاء وتلقين . وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواسعة التي كانت له في القرون الوسطى ، فإنها انحسرت شيئاً فشيئاً حتى كادت تخرج من عالم الطبيعة إلى ما بعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول إلى حالة كالحالة التي حصره فيها الإسلام : قرين سوء ليس له على قرينه سلطان .

* * *

ويؤول الشيطان على هذا في القرن العشرين إلى مصيرين : مصيره

في مجال العقيدة الدينية وهو إلى النقصان ، ومصيره في مجال العبارة المجازية وهو إلى الزيادة ، وعلى الناظر في العبارات والأساليب أن يطيل النظر في هذا المصير الأخير . أليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجدان على بلاغة العقل واللسان ؟ أليست هذه اللفظة الواحدة : لفظة الشيطان بلاغة وجدانية تتقاصر عن مداها في التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر و « اللفظ المركب المنميد » .

من الذين زادوا في عدد الشياطين المجازية من كتاب العصر الحاضر تولستوى حكيم الروس الكبير . فقد أضاف إلى عددهم شيطان الكبرياء العنصرية وشيطان التعصب الديني وشيطان الاستعمار وشيطان الحرب والاستبداد .

ومن الذين زادوا في عددهم إلى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف . . . فإن شيطانه الذي أقامه في الضواحي رجل كان طفلاً يتيماً تركه أبوه لزوجة سكيرة ، تحبسه في الدار يهلك جوعاً وعرياً وتذهب لتسكر وتعربد في الطريق ، فإذا شكها إليها الطفل اليتيم إذ ترجع إلى المنزل آخر الليل ضربته حتى يصبح ثم ضربته حتى يسكت عن الصياح ، فكبر في الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليها لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير أمه من خلق الله . . . فهم كل خلق الله ! وفيهم الملايين من أمثاله الحاقدين على كل مخلوق .

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الإنجليزية المعروفة ماري كاريللي ، والشيطان عندهما في قصة أحزان الشيطان يشبه أن يكون صورة الخير منظوراً من قفاه لا من وجهه وسائراً إلى الوراء بدلاً من مسيره إلى الأمام .

* * *

ومن الذين زادوا في عددهم سليل بيت العلم بين الإنجليز الدوس هكسلي كاتب القصة والمقال وأديب العلماء وعالم الأدباء ، فانه أخذ « اسيدى » شيطان القرون الأولى فنسخ منه ألوف النسخ بين الآدميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور النساك والرهبان الذين رهبوه في وضوح

النهار . . . إذ كان من بلواه أنه لا يغشاهم مع الظلام بل يطرق عليهم قلوبهم في وهج الظهيرة ومع شمس الصحراء التي يهرب منها الإنس والجان .

كان « اسيدى » هذا شيطان الحلم في اليقظة الذى سلطه إبليس على رهبان الصعيد في عصور المسيحية الأولى ، وكان من دأبه أن يلهمهم عن العبادة بما يزخر فيه لهم من الأحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون للسكون في ظلال الصوامع بين نيران القيظ في الصحراء . فاذا حلموا كسلوا وإذا كسلوا شكروا وإذا شكروا آل بهم الشك إلى السامة والملل وكراهة الدنيا والآخرة واليأس من الصحيح والباطل على السواء .

وينقله الكاتب من القرون الأولى إلى القرن التاسع عشر ثم إلى القرن العشرين ، ويقول في تفسير نقلته « أننا لا نزعّم أن اسيدى من مخترعات القرن التاسع عشر » . فان السامة والخيبة واليأس وجدت قديماً ولم تنقطع عن الوجود ، وابتلى الناس بآلامها فيما مضى كما نبتلى بها الآن . . . غير أنها في العصر الحديث قد طرأ عليها ما يجعلها موقرة مرعية ولا يجعلها كما كانت خطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرض من أعراض السقم . . . وهذا الذى طرأ عليها إنما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ . . . إنما هو إخفاق الثورة الفرنسية وذلك الإخفاق الذى يربى عليه فى الضجيج والأبهة وهو سقوط نابليون . لقد غرس كلاهما « اسيدى » فى قلب كل فتى من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح إلى أحلام المجد والعبقرية ، ثم جاءت الصناعة الكبرى بما تراكم معها من القدر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسخ الطبائع على يد هذه الصناعة محسب القلب الكريم من حنة الحزن والأسى ، واطلع الناس فرأوا أن الحرية الدستورية التى طالما كافحوا من أجلها عبث لا يغنى شيئاً مع طغيان الآلات واستعبادها للنفوس ، فكان ذلك رعباً آخر من ضروب الرعب التى خيبت الآمال فى القرن العشرين ، وزيد عليها من دواعى السامة داع أدق وأغلب مما عداه وهو تعاظم المدن وراء كل مقدار معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا فى البعد عنها تفاهة لا تطاق ، وأطبقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوضاء المدينة

حنيناً إلى سامة الريف . . . وكأنا كانت هذه المضجرات في انتظار تاج
يعلوها فتوجهها الحرب العالمية الأولى . . .

* * *

ويعنى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدينية أناس من طبقة هؤلاء الكتاب
الذين اتخذوا من اسم الشيطان تعبيراً مجازياً عن مساوىء العصر وشروره
وأدناسه ، وربما كتب المؤلف الواحد عن هذا الشيطان وذاك الشيطان كما
فعل هكسلي فيما ألمنا به من كتاباته آنفاً وفي كتابه الذى ألفه عن شياطين
لودن The Devils of Loudun . . . ومن قرأ هذا الكتاب علم أن هكسلي
قد أراد أن يكشف عن خبيثة من سوء فى هذا الإنسان الذى يلعن
الشيطان ثم يهبط إلى ما دونها أخبث الشياطين .

فالقصة التى حققها الكاتب من مراجعتها التاريخية إحدى المبكيات
المضحكات من مآسى التاريخ التى حفلت بها صفحاته فى القرون الوسطى ،
وكان فيها مظلومان مكذوب عليهما كذباً لا يخفى على أحد فى الزمان الحديث ،
وهما الشيطان ورجل من رجال الدين مغضوب عليه .

وقد بدأت القصة باصابة بعض الراهبات فى بلدة لودن بالصرع
واتهامهن بالتجديف والبداء والتفوه فى نوبات المرض بكلام يخجلن منه
كلما أعيد عليهن بشيء من التلميح وهن مفيدات ، ولو حدثت هذه الإصابة
فى العصر الحاضر لامتطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم
أنهن مصابات « بالهستيريا » أو بالفصام الذى تنقسم فيه شخصية المريض ،
ولكن الرئيس الذى تولى البحث فى أمرهن لم يستطع أن يفهم من بدائهن
فى خلال النوبة وخجلهن بعد الإفاقة منها إلا أن المتكلم بالبداء أحد غيرهن
يهمه أن يعيث براءة الراهبات انتقاداً من الله وعابداته وعابديه ، ومن يكون
هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان !

وسنحت الفرصة لاتهم الرجل المظلوم مع الشيطان وهو الأسقف
« جرانديه » عدو الكردينال ريشليه ذى الحول والطول فى بلاط باريس ،
فاتهم بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغريب بهن ، وصدقت إحداهن

أنها فريسة الشيطان باغراء الأسقف الساحر ، فرمته بالتهمة كما أوحى إليها ،
وقرر المحققون أنهم سمعوا اعتراف الشيطان وهو يتكلم بلسان تلك الفريسة ،
فتقررت إدانة الأسقف بشهادة الشيطان ! وحكم عليه بالإحراق وهو ب قيد
الحياة .

ولما قيل لهم أن الشيطان أبو الأكاذيب لم يعسر عليهم أن يبطلوا
هذه الشبهة باضطرار الشيطان إلى الصدق بين يدي أصحاب العزيمة والبرهان
من المحققين الصالحين .

وتمشى السخرية مع الفجعية جنبا إلى جنب في هذه المجهزلة الشيطانية ،
فيحدث في بعض محاضر التحقيق أن يقول الشيطان أن السيد لوبردمان
رئيس لجنة التحقيق ديوث تخونه امرأته مع الأسقف وغيره ، ويكون
لوبردمان غائبا عن الجلسة ولا يلتفت إلى قراءته عند توقيعه فيضع عليه
اسمه بعد السطر المعهود الذي يقرر فيه اعتماد الصدق في كل ما بجاء فيه ،
ويضحك ولالة الأمر ملء أفواههم ساعة يعرض المحضر عليهم ، ولكن
رئيس اللجنة يعود إلى التحقيق لتسخير ذلك الشيطان نفسه في تمليق الكاردينال
ويفتح المحضر المحفوظ بتاريخه (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) سائلا : ما قولك
في الكاردينال العظيم حامي الديار الفرنسية ؟ فيجيبه الشيطان مقسما باسم
الله : أنه سوط عذاب على أصدقائي أجمعين . . ويعود الرئيس سائلا :
ومن هم أصدقائك ؟ فيقول الشيطان : إنهم زمرة الهراطقة . . ويسأله
الرئيس : وما هي مآثره الأخرى ؟ فيجيبه الشيطان أنها هي إنقاذه للشعب
وقدرته على الحكم هبة من الله وحرصه على سلام المسيحية وولاؤه للملك
لويس . . .

وبعد العناء المفضي في جمع هذه الأوراق والمضاهاة بين التحقيقات
يخرج الكاتب منها إلى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون أعنف شياطينه
وهو شيطان الجماعة المستفزة إلى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الأوطان ،
فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الجنس الآري المطهر ، وما تصنعه
الفاشية حين تثور على أعداء المحب الروماني العريق ، وما تصنعه الشيوعية

حين تشور على أصحاب الأموال الأوغاد - كل أولئك ثورة لا تتورع عن
اتهم الأبرياء وإحراق الأحياء ، والهبوط إلى الهاوية في أهبة الصعود إلى
السما .

* * *

ومن المفكرين الذين لهم خطر في كل بحث يدور على العقيدة والتفكير
العصرى . كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب
مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب في موضوعات
الفلسفة الدينية ، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتي في العصر الحاضر ،
والكاتب الآخر جيوفاني بابيني صاحب كتاب حياة المسيح وأديب المذهب
الكاثوليكي المرضي عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين .

ألف الدكتور لويس رسائل الشيطان وجعلها على لسان أستاذ
من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة وإقصاء بني آدم عن حظيرة
الرضوان ، ومعظم هذه الأساليب نفسية يرى العلماء النفسانيون مع
المؤلف أنها بواعث شر وجاهل في الطبيعة الإنسانية ، ويرى العلماء
الدينيون معه أنها مداخل الشيطان إلى سريرة الإنسان فيقول الشيطان
الأستاذ - مثلاً - لتلميذه أنه خالق أن يتنبه إلى خطأ جسم يقع فيه ناشئة
الشياطين وهو اعتقادهم أن السرور حباله الشيطان . إذ الحقيقة أن
الإنسان باق في الحظيرة الإلهية ما بقي في نفسه موضع للسرور ، وعلى
الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذي
يلحق باللغو والتهريج ، وينبه الأستاذ تلميذه إلى الإقلال من العناية بإغواء
المتدينين الذين تساورهم الشكوك من مجراء الحروب والنكبات فان المتدين
الذي لا تصمد عقيدته لهذه الشدائد غني عن الإغواء ولا حاجة بالشيطان
إلى فرط العناية باغوائه ، وعلى الشيطان التلميذ ألا ييأس من أصحاب
الفضائل الذين يعلمون بفضائلهم ويفخرون بها مع أنفسهم ومع غيرهم ،
فإنها فضائل على مقربة من الرذائل الشيطانية قد تعمل عمل الذيلة وهي في
عنفوانها ، وليس من عمل الشيطان أن يبشر الإلحاد لأن الذي ينكر وجود الله

وينكر وجود الشيطان ، وإنما عمله أن يصرف المؤمن بالله عن الأمل والعبادة ورؤية المحاسن والمعجزات في خلائقه ومقاديره ، وأقوى الحبائل في رأى الأستاذ الشيطان أن ينفصل الإنسان من حاضره ويقبل على المستقبل بحملته فإن المقبل على المستقبل منقطع عن الحاضر والماضى متعلق بالأباطيل ودواعى القنوط والكراهية ، وعلى الشيطان الناشئ أن يذكر أن الكراهية هى المهمة فى المذاهب « المستقبلية » دون عناوينها ودعاويها ، فلا فرق بين الشيوعية والفاشية والإباحية على اختلافها ما بقيت نفس الإنسان مخلواً من الحب مفعمة بالنقمة والبغضاء ، وآفة الآفات الكبرى على الدوام أن يصبح الكون فى نظر الإنسان صفراً من العجائب وشتيتاً متشابهاً من المألوفات والمتكررات .

ولولا ضيق نظر يساور عقل المؤلف أحياناً كلما نظر إلى عقيدة غير عقيدته لكان تفكيره فى هذه الأمور مطابقاً لتفكير المتدين فى كل دين . والكاتب الكاثوليكي جيوفانى بابيني يؤلف الكتاب عن الشيطان ويريد أن يطبق فضيلة السماحة على هذا العدو المبين فى جملة الأعداء الذين تشملهم رحمة الله ، ويرى أن الله لا يرضيه دوام الشر ولا دوام السقوط على كائن من الكائنات العاقلة ، فلا بد فى نهاية التجربة الكونية من حياة لا شر فيها ولا شيطان . . وزوال الشيطان إنما يكون بزوال شره وارتداده عنه إلى الخير والصلاح .

ورأيه هذا مخالف لآراء الأكثرين من أقطاب المذهب ، ولكنه لم يبلغ من المخافة أن يعرضه للطرد والحرمان ، فإن آراءه الأخرى فى الكتاب تحسب له إذا حسب هذا رأى عليه ، وفيها شرح للعقائد الدينية وتقبيح للمنازع الشيطانية يحمده له المعتقدون ويقنعون به من الكاتب فى زمن يقل فيه أمثاله من الكتاب العالمين الذين يعلنون عقائدهم فى غير مبالاة بسخرية المنكرين والملحدتين .

* * *

تلك زبدة مفيدة لما يسمى (بالدمنولوجى) Demonology أو مباحث .

الباحثين عن الشيطان في العقيدة الدينية وفي التعبيرات المجازية في القرن العشرين .

فالمدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشيطانية فعلا ويحصرونها في أضيق حدودها ولا يبوئونها من السلطان على النفس البشرية تلك المنزلة التي كانت لها في عقائد الأولين إلى ما بعد القرون الوسطى .

والمعبرون المجازيون فريقان : فريق يلغى الشخصية الشيطانية بته ويحل محلها عوامل الوعي الباطن التي يسميها الغريزة أو الكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذه الأسماء . . وهذا الفريق مسبوق إلى رأيه في جملة دون تفصيله ، فقد ذهبت هذا المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند في رأيها إلى قول النبي عليه السلام أن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم في العروق ، وليس هذا التأويل عند جمهرة المحدثين بالتأويل المقبول .

والفريق الآخر على رأى هكسلي الذي تقدم ذكره ، وهو أن العقل والعلم لا يمتنعان بوجود الشيطان كما جاء في الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول : « هل توجد الشياطين ؟ وإن كانت توجد فهل كانت حاضرة في جسد الأخت مجين وزميلاتها الراهبات ؟ فأما المس الشيطاني فإست أرى في القول به سخفاً أصيلاً ولا أجد شيئاً من التناقض في فكرة ترى إمكان وجود الأرواح غير الإنسانية طيبها وخبيثها أو لا طيبة ولا خبيث فيها ، وليس ثمة ما يضطرنا إلى القول بأن الملكة الفاهمة ممتنعة فيما عدا أجسام الإنسان والحيوان ، وإذا قبلنا الشواهد على الكشف والنظر البعيد - وهي شواهد يكاد القول برفضها أن يتعذر علينا - فلا بد من الإيمان بعوامل مفكرة مستقلة على الأغلب الإعم عن المكان والزمان والمادة . . » .

وهذه هي زبدة « الدمنولوجي » في صفحتها الأخيرة من آراء المتدينين والمفكرين في القرن العشرين .

خاتمة

تمت في هذه الصفحات رسالة موجزة في موضوع من موضوعات المقارنة بين الأديان والعقائد يدور حول تصوير « قوة الشر » من عهد القبائل البدائية إلى منتصف القرن العشرين . .

والمقارنة بين الأديان والعقائد علم حديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبيل ختامه ، وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الأخيرة فيه تتوالى ويدسخ بعضها بعضاً أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تبرح أوائل الطريق ، وكلما تعجل الباحث الفراغ من دور الجمع والتبويب . والنتائج المتعلقة على البقية المنتظرة بادرته الكشوف الحديثة بما ينقض حكمه أو يضطره إلى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد .

ونحن نختم هذه الرسالة ، والأجزاء الأخيرة من موسوعة أرنولد توينبي Arnold Toynbee تصدرها المطبعة من المجلد السابع إلى المجلد العاشر ، وفي نهاية الجزء السابع منها تعقيب على الظاهرة الغامضة التي كشفت عن التشابه القريب بين عقائد القبائل البدائية في القارات الخمس وانقسام المفسرين لهذه الظاهرة إلى فريقين : فريق يرى أن الإنسان تلقى إلهاماً بالوحدانية قبل التاريخ وقبل افتراق الأجناس والقارات ، وفريق يرى أن الطبيعة الإنسانية تتقارب في وحى البدئية وتستلهم شعوراً واحداً بما وراء المادة المشهودة ، وسيمضي زمن طويل قبل أن تتحد بين الفريقين ، لأن الأرض واسعة والقبائل البدائية مبعثرة ، على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التي تخفيها ، وما تجلوه منها اضطراراً أو اختياراً يتيه فيه الباحثون بين غرابة اللغة وغرابة الرموز .

فمن الغرارة البالغة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة بين الأديان أنه شيء عتيق مضى أوانه ، على حين اتفاق الأقوال بين علماء

المقارنة وقراءتها على ابتدائها في خطواتها الأولى وانتهائها فيما انتهت إليه إلى نتائج معلقة بين الترجيح والتردد والانتظار .

ولا نخال أن السريرة الإنسانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك في خطواته الأولى أو على أبواب النتائج التي لا تفتح إلا بين التردد والانتظار .

لكن الفائدة المبكرة التي خلصت للعقل الإنساني من بواكير البحث في العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأنابيق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظير الفلكيين .
فها هنا حشد من العقائد والأخيلة تمتلئ به سيرة النوع الإنساني في نحو مائة قرن يدركها التاريخ .

ما هي في أرقام الحساب أو أنابيق المعامل أو تجارب الطبيعة أو مناظير الفلكيين ؟

سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة !
و حديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نلغه ونعهد بادعياء العلم جميعاً أن يبدأوا بالنوع الإنساني في تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية .

وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الإنساني قبل مائة قرن ، وليأخذوا في تعليمه الأبجدية من هذه الدروس .

ولنفرض أولاً فرضاً مستحيلاً وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقاً وما يسمونه دراسة منطقية أو علمية .

وليبدأ النوع الإنساني في هذه المدرسة بفلسفات الأخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها .

وليحفظ فلسفات الأكاديمية كلها ويتخرج عليها .

ولقد حفظها ولقد تخرج منها عما شاء له أدعياء العلم من آراء .
ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة إلى القرن العشرين فماذا نقول ؟
نقول إن هذا في الحق هو حديث الخرافة الذي لا يعدو الألفاظ والعناوين
وأسماء المدارس والمريدين .

لكن النوع الإنساني ترك هذه الأكاديمية قبل مائة قرن وأمعن في
طريقه الذي هداه إليه القدر وأعدته له الفطرة .

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضة لكل خلق من أخلق
الخير والشر والقداسة واللعنة ، وأن أعلم العلماء اليوم لا يستطيع أن يقيم
من الفوارق الحية والمحسوسة بين خلق وخلق فارقاً واحداً كالفارق الذي
نفهمه ونحسه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الإلهية والخلائق الملكية والخلائق
الشیطانية أو عما يحملها من الخلائق السماوية والخلائق الأرضية والخلائق
الجهنمية . . .

إن العلماء الذين يستعبدون تعبيراتهم المجازية من هذه الفوارق لا يفعلون
ذلك لعباً بالألفاظ أو تطرفاً بالتشيل والتشبيه . ولكنهم يستعبدون ذلك
التعبير لأنه أدل وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعبدونه من المدرسة النفعية
والمدرسة السلوكية والمدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة وتضامنها
الهيئات والبيئات ، وما إليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق
من مسمياتها شيئاً وهيئات أن تخلقها ولو تسمت بها مئات القرون . . وغاية
ما تبلغه أنها تأتي إلى محصول القرون بعد زرعها ونمائها واستوائه ومحصده ،
فتكتب العناوين على غلافه ويادره ولا تأمن بعد ذلك أن تضل بين تلك
العناوين التي كتبها بيديها !

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقاس بمقياس الأرقام وأنايق
المعامل ، ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذي سيخطيء لا محالة ،
كما يخطيء كل واضع لأمر من الأمور في غير موضعه ، وكل من يقيس
شيئاً وهو مجهل كيف يقاس .

على أننا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القم دون أن نضطر إلى التوسع في هذا الموضوع الشاسع العسير ، موضوع المقارنة بين الأديان .

فالغريزة في كل رجل وامرأة وفي كل ذكر وأنثى من الحيوان تسفه كل من يعتسف طرق البحث ويسبر أغوار الطباع بغير مسبارها .

وهذا حنان الآباء والأمهات لغو وباطل بكل شهادة من شهادات الحس والعقل وتجارب المعامل وأرقام الحساب ، لأن حنان الآباء والأمهات يقول لهم أن طفلهم دون غيره يساوى كل من عداه من أطفال الأحياء ويفوقهم في حق البقاء ويجب أن يزولوا جميعاً إذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها .

وليضرب صاحب القياس الحسابي على هذا الحنان بالخط الأحمر ليخرجه من حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأي في رأسه وبين الحنان في صدر كل والد ووالدة ، من الإنسان والحيوان .

أصواب هذا الحنان أو خطأ ؟

أحق ذلك الدين أو باطل ؟

إنما الخطأ أو الباطل هو الذي نسقطه ونلغيه ، فهذا خطأ واحد وباطل واحد ، وهما الخطأ والباطل في مقياس صاحب الحساب وصاحب الأنبيى .

* * *

وندع الغرائز المحجبة ونقترب من المحسوسات الواضحة المفتوحة للسمع والبصر ، فنفرض أن مخلوقاً يرى الأشياء كما تكون في جو الأثير على بعد من الأرض والجاذبية الأرضية ، وتحدث أمامه عن اللون الأحمر واللون الأخضر وعن العناصر الثقيلة والعناصر الخفيفة وعن المقاطع والكلمات والأصداة والنغمات ، فماذا عليه لو صاح بنا : على رسلكم يا هؤلاء اللاغطين . . إن ما تهذرون به لحديث خرافة وأضغاث أحلام .

إنه لا يكون قد خرج بذلك على سنة العلم وأدعيائه ، وأننا مع هذا لم نبتعد من المحسوسات التي يحيط بها العيان وتسمعها الآذان فإذا كانت

الفهرس

الموضوع	صفحة
فائحة خير	٣
قبل الشيطان	١١
أنواع ودرجات فى الحرام والمحظور	٢٥
أنواع الشيطنة	٣١
أسماء الشيطان الأكبر	٣٧
الحضارة المصرية	٤٣
الحضارة الهندية	٤٩
بين النهرين	٦١
اليونان	٧١
فى طريق الأديان الكتابية	٨٣
الأديان الكتابية (أ) العبرية	٨٧
الأديان الكتابية (ب) المسيحية	٩٧
الأديان الكتابية (ج) الإسلام	١١٩
عباد الشيطان	١٣١
حلفاء الشيطان	١٤٣
الشيطان والمنون	١٥٥
شياطين الشعراء والكتاب	١٦٩
فى الأدب العربى	١٧٣
فى العصر الحاضر	١٩٣
خاتمة	٢٠٢

رقم الإيداع ٢٣٠١ / ١٩٨٥

مطبعة نهضة مصر

العجالة - القاهرة



التمن ٢٠٠